

جائزة الألوكة

مسابقة انصر نبيك.. وكن داعيا

هكذا أسلمت

بحث عن الحقيقة لمدة عام



المشاركة الفائزة بالجائزة الثالثة

بفرع البحث العلمي

بقلم: بنت مريم







جائزة الألوكة

مسابقة انصر نبيك.. وكن داعيا

هكذا أسلمت

بحث عن الحقيقة لمدة عام

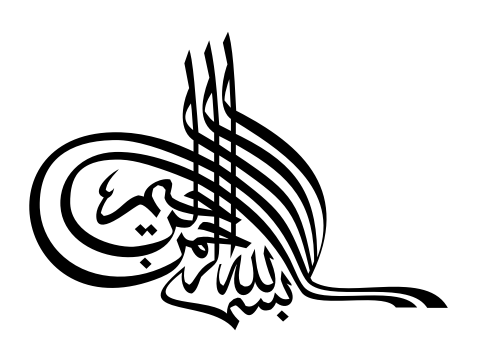
المشاركة الفائزة بالجائزة الثالثة

بفرع البحث العلمي

بقلم بنت مريم











تقديم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السماوات وملء الأرض وملء مابينهما، والصلاة والسلام على إمام الحقِّ والهدى، سيِّدنا محمد معلِّم الناس الخير، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن **موقع الألوكة** أخذ على عاتقه منذ تأسيسه أن يكون رسالةَ حقٍّ سامية إلى أبناء الإسلام في كلِّ مكان، يقدِّم لهم العلمَ النافع، والنصحَ الصادق، ويشيد لهم الصُّوى والعلامات الهاديةَ إلى صراط ربهم القويم.

ولما كان العلم بالكتاب والسنة وهدي النبيِّ الكريم ﷺ خيرَ ما يقود البشرية إلى جادَّة الصواب، وإلى طريق النصر والتمكين، رأينا تحفيز أبناء الإسلام عمومًا وطلاب العلم والباحثين خصوصًا، إلىٰ القراءة والمطالعة، والبحث والكتابة، بمسابقات تُجرى بين حين وآخرَ تتناول موضوعات تهمُّ المسلمين اليوم، وتوضح لهم الطريق، وتكشف عن عيونهم حجب الظلام.

وكان من سوالف الأقضية -في مرحلة إنشاء الموقع وإعداده- أن ينشرَ رسامٌ دانماركيٌّ رسومًا (كاريكاتورية) ساخرة من نبيِّ الهدى عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم! ونتج عن هذا الفعل الأحمق ردودُ أفعال كثيرة ومتباينة من أبناء الإسلام في أقطار الأرض كافَّة، استنكارًا ورفضًا لهذه



الإساءة القبيحة.. ورأينا أن خير ردٍّ على هذه الإساءة هو استثمارُ عواطف المسلمين الصادقة في بيان شمائل نبيِّهم ﷺ وخصاله الكريمة ورحمته الفريدة.. وتقديمُ صورة صحيحة عنها إلى الغرب، إذ لربما لو عرف هذا الرسامُ وغيره من الغربيِّين الشانئين والحاقدين على الإسلام ونبيِّه، لو عرفوا السيرةَ الصحيحة لنبيِّ المسلمين وحقيقةَ دعوته لوقفوا منه موقفَ التقدير والتبجيل على غِرار مواقف كثيرينَ من أبناء جلدتهم المنصفين.

وقد رأينا اهتبالَ هذه الفرصة لحثِّ الكتَّاب والأدباء والمفكرين على تسخير مَلَكاتهم ومواهبهم في نصرة نبيِّهم ﷺ والذبِّ عن عرضه الشريف بكتابة بحوث ومقالات وقصص.. فكانت مسابقة الموقع الأولى بعنوان: **(انصر نبيَّك وكن داعيًا)**، ولقيت بتوفيق الله اهتمامًا كبيرًا من الإخوة والأخوات، فاق توقعاتنا، وأثمرت مشاركات متميِّزة مفيدة، ولله الحمد والمنَّة. وكان إعلان نتائج المسابقة في غُرَّة شعبان سنة **١٤٢٧**هـ.

وتعميمًا للفائدة، ونشرًا للعلم النافع، ننشُر هذه البحوثَ والمشاركات الفائزة، راجين أن يكتب الله لها القَبول بفضله وأن ينفعَ بها المسلمين وغير المسلمين في كلِّ مكان.. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

المشرفان

د. سعد بن عبدالله الحميِّد   **د. خالد بن عبدالرحمن الجُرَيسي**



الباحثة والبحث

هذا البحث خَطَّته يراعةُ شابَّة قِبطِيَّة مصريَّة، مثقَّفة، وحاصِلَة على إجازَة بالحقوق. .

قَضَت من عُمُرها عِقدَين كامِلَين تتقلَّبُ في أعطاف النصرانيَّة. .

ولكنها كانت تشعُر في أعماق نفسِها بغُربة مُمِضَّة مؤلمة، وبضَياعٍ وحَيرة!

فأبَت أن تستسلمَ لدُوَّامة الواقع، ونهضَت بعَزيمةٍ ثابتة، وهِمَّة حذَّاءَ ماضِيَة، لتبحثَ بنفسِها عن الطَّريق. .
طريقِ الحقِّ والإيمانِ واليقين.

لتمنحَ روحَها الهائمَةَ المتشوِّقةَ إلى الحقيقَة، ما تَنْشُدُه من طُمأنينةٍ وسَكينَة.

قضَت عامًا كامِلًا تتأمَّلُ في كتاب الله القُرآن. .

تُنعِمُ النظرَ في نصُوصِه، وتتدبَّرُ أحكامَه ومعانيَه، وتفحَصُ عن كُنهِ آياته،وإحكام نَسجِه ونَظمِه. .

وتوازِنُ كلَّ ما يُطالعُها فيه، بما تَعرفُه جيِّدًا من نُصوصِ التَّوراةِ والإنجيل، وبما رَضَعَتهُ من تعاليمِ المسيحيَّة ومُعتَقَداتها. .

رحلةٌ صَعبةٌ وشاقَّة، ولكنَّها السبيلُ الوَحيدُ إلى بُلوغِ شاطِئ السلامَة..

ومَن رام الوُصولَ لم يعبَأ بعَقَبات الطَّريق.

وهذا حقًّا ما كان، بتوفيقِ الله الرَّحيم وتَيسيره،

وأثمَرَتِ الرِّحلةُ ملاحظاتٍ ومُقارناتٍ ورُؤًى كانت تُدوِّنها في أثناء المَسِير..

وها هي ذي مُدَوَّنتُها بين يدَيكَ أيُّها القارئُ الكريم،

وهي حقًّا جَديرةٌ بالاطِّلاع والقِراءَة والتأمُّل..

عسى أن يجدَ فيها بعضُ الحَيارى اللاهثينَ وراء الحقيقَة، ما يُوصِلُهم إليها.

أيمن بن أحمد ذوالغنى

مقرِّر لجان التحكيم بالمسابقة

❁ ❁ ❁ ❁ ❁





إلهي

إلهي. . أتممتُ الآن واحدًا وعشرين عامًا، وحُقَّ لي أن أعتمدَ على نفسي في فهمك، وفهم الحياة، وفهم الآخرين، وفهم نفسي أولًا . .

إلهي. . لديَّ الكثير من الأسئلة عنك، وأنا في حَيرة شديدة، أريد أن أراجعَ ما رسخ عندي من عقائدَ منذ الطفولة، أريد أن أختبرَ عقلي وقدرتي على الوصول إلى الحقيقة.

ومن المؤسف أنني لستُ على يقين تام بكل ما سمعته. . أريد أن أناقشَ بجرأةٍ أفكاري الموروثة وأفكاري القلقة.

إلهي. . أرجو ألا تَعُدَّ كلماتي تجاوزًا، أمهلني حتى أنتهيَ من تسجيل خَواطري وشكوكي ونتائجَ بحثي فيها، أرجوك أمهلني حتى أفرغَ من الكتابة تمامًا.

الإيمان الحقيقي هو أن أفهمَ وأسألَ وأعرض وجهة نظري، وأن أحاربَ التعصب الإنسانيَّ الذي يجعلنا نسد آذاننا حتى لا نسمعَ ما يقوله الآخرون. . نحن نؤمن بالإنجيل والتوراة، وبرغم هذا لم أسمع عن مسيحيٍّ في دائرة مجتمعي ترك المسيحيةَ إلى اليهودية، ربما لأننا مؤمنون بالمسيح الذي

أرسلتَه، وربما لأن المسيحي الشاكَّ يشك في التوراة قبل شكه في الإنجيل، من حيث نقاؤهما وسلامتهما من أي تدخل بشري.

غالبًا ما يترك الناس المسيحيةَ إلى الإلحاد أو إلى الإسلام وأحيانًا إلى البوذية.. البوذيةُ فكرة الإله فيها غيرُ واضحة أو شبه معدومة، والإلحادُ هو إنكار واضحٌ للربوبية، ولأنني موقنة بوجودك يا إلهي، فلم أفكر ولو لحظة واحدة في البوذية أو الإلحاد.. أي لن أبدأ من الصفر.

لحسن حظي لم يبقَ لي إلا أن أبحثَ عن الحقيقة، وعن كلماتك في الإسلام وتعاليم الديانة الإسلامية، وأدرسَ بتأمل فكرتها عن الألوهية والدين وعلاقة الله ببني آدم، ومن حسن حظي أنني أعيش في بيئة مسلمة، وأتكلَّم لغة القرآن.

اشتريتُ بعض الكتب الإسلامية، ونسخةً من القرآن، وبعض كتب التاريخ، وسأحاول الفهمَ في حدود قدرتي العقلية، ولن أستعينَ بأي إنسان، حتى لا أسمحَ لأحد بأن يحرِّكَني كما يريد.. وسأوازن للوصول بنفسي إلى الحقيقة، وهذا يعني أنني سأكتب بلا خجل.

ولما كنتَ مطَّلعًا على كل ما يدور في الأذهان.. فهذا يعني أن تدويني لا يخفى عليك. تدويني سأخفيه عن أهلي،

وهذا ما لا أستطيع أن أفعلَه معك. سأبدأ بالتفكير والكتابة فأَعِنِّي، وأسألك أن تسترَ أمري حتى يتم.

إن كنتَ غاضبًا، فأرجوك ألا تحرقَ يدي التي ستكتب. إن شئتَ فأحرق قلمي، لكن ارفَع غضبك عن مدوَّنتي ولا تحرقها، فلا يدفعني للكتابة إلا محاولةُ الوصول إليك.. أنت يا رب الذي أعطيتني العقل، فدعني أجرِّبه.

إذا كانت كلماتكَ التي وصلت إلينا هي الحقيقة، فسأعود مطمئنَّة ومشبعة سلامًا وبركة، وإذا كانت غيرَ ذلك فدعني أبحث عنك، أعطني مهلة عام، عامٍ واحد فقط، ثم امنحني يقينًا من عندك وسلامًا.

لا تُمِتني قبل ذلك، حتى لا أموتَ ضائعة.. أنا موقنةٌ بوجودك تمامًا، أريد شِحْنَة إيمان فقط لأعرفَ حقيقتك، لا أحتاج إلى سماع المزيد من القصص عن الذين وقفت حمامةٌ بيضاء على أكتافهم فشُفوا من الشلل أو (الروماتيزم)... هذه هي البِضاعة الإيمانية الموجودة! وهذه هي الشِّحْنة المتوافرة للأذكياء والأغبياء على السواء.

لقد طلبتُ أيسرَ من ذلك ولم يُجبني أحد، لم يستطع أحدٌ أن يقنعَني كيف يكون الثلاثة الكاملين المستقلِّين واحدًا! وكيف يكون الواحدُ الإله -كما في الأناجيل- ثلاثة!.

وبعد أمثلةٍ؛ كالشمس والبيض والتفاحة وأجزائها، يُقال بعد ذلك: إن الأمرَ فوق إدراكنا جميعًا! إذًا فلماذا يعطون أمثلةً على ما لا يُعقَل ولا يُفهم؟!.

وفي هذه الحال يكون السذَّج هم الأبناءَ المثاليين للكنيسة، أما من يستخدمون عقولهم فهم مسكونون بأرواحٍ شرِّيرة! وبهذا أصبحت التي تفكر، هي مريم المجدلية.. ومن لا يستطيع الإجابة، أصبح المسيح طارد الشياطين!!.

كل ما أريد أن أقوله لك يا رب هو: أرجوك دعني أفكِّر وأراجع وأكتب مدة عام.. ولا تُرسل أيَّ حمامة..

واجعل ما أدوِّنه جسرًا راسخًا وآمنًا للوصول إلى الحقيقة، آمين.





إسماعيل

النبي محمد ينتسبُ إلى قبيلة قريش الشهيرة في الجزيرة العربية، وهذه القبيلةُ ذات الوضع الديني والاجتماعي المميز، نسبُها معروف أيضًا، فهي من نسل عدنانَ، وعدنانُ من نسل قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم. .

هذا نسبٌ معروف ومُشتهَر بين القبائل العربية جميعها قبل ظهور محمد بمئات السنين.

إن كون النبيِّ محمد من نسل إسماعيل بن إبراهيم، لا يعني بالضرورة أنه نبي، لكن لِنقُلْ إن هذا النسبَ يعطي وجاهة ما لدعوته، وهو الوحيدُ من نسل إسماعيل الذي ادعى النبوة.

الأديان السماويةُ الثلاثة، فيها ما يؤكِّد أن إبراهيم قد تلقَّى وعدًا من الله بأن تكونَ النبوة في نسله، لكن التوراة تحصر ذلك الوعدَ في نسل إسحاق، بحُجَّة أن إسماعيل ابن الجارية.

لكن ليس هناك نصٌّ واضح صريح يقول: إن نسلَ إسماعيل محروم من النبوة قطعًا، وأنا أفهم أن الحس العِرقيَّ عند اليهود قد يدفعهم إلى إعادة تأويل الوَعد. . أما القرآن

فلا يحوي دَعاوى عنصرية أو تحيُّزًا لإسماعيل على حساب إسحاق. بل على النقيض من ذلك يقرر القرآن نبوةَ إسحاق ويعقوب، ويعطي مكانة مميزة للأسباط، ويقرِّر كثرة الأنبياء في بني إسرائيل، وهذا يمنح الثقةَ بدعاوى القرآن، الذي وضَّح توافر الأنبياء في بيت إسحق.

ونرى في التوراة كلمات تلمِّح إلى شيء ما، وهي كثيرة، مثل (لترفع البرِّيـَّة صوتها، الديار التي سكنها قيدار). وإذا حدث اختلافٌ بين التوراة والمتوارَث عند قبائل العرب جميعها، بما فيها القبائلُ التي لا تنتسب إلى إسماعيل، في تحديد أين سكن إسماعيل؟ فإنني مضطرةٌ إلى قَبول المتواتر المتوارَث عند العرب؛ لأنهم معروفون باهتمامهم بالأنساب وضبطهم لها على نحو مدهش، حتى إنهم يعرفون اسمَيْ الامرأتين اللتين تزوجهما إسماعيل، وهذا بشهادة القبيلة العريقة التي تنتمي إليها الامرأتان. وكذلك معرفتهم بحبِّ إسماعيل للخيل، ودقته في استخدام النَّبْل، بل معروف أن قبرَه بجوار الكعبة.. كل هذا يجعل فكرةَ أن إسماعيل وابنه قيدار عاشا في مكان آخرَ غير مكة، دعوى باطلة بدلالة التواتر، وبخاصة أن شخصية إسماعيل لم تكن محلَّ اهتمام عالٍ في التوراة، في حين كانت محلَّ اهتمام بين القبائل التي خالطته وآمنت به وبأبيه إبراهيم.



وعمومًا، لا يستطيع أي شخص أن يثبتَ أن إسماعيل كان مغضوبًا عليه من أبيه إبراهيم، أو حتى أن صِلَته بأخيه إسحاق كانت مقطوعة، فبحسب التوراة، كان إبراهيم يزور ابنه، وكان ابنه يزوره مصطحبًا زوجته، ولا يمكن أن يقوم شخصٌ ما بزيارة أبيه صحبةَ زوجته إلا أن تكونَ العلاقة بين الأب والابن طبيعية، فمن الذي يغامر بإحراج نفسه أمام الزوجة ليزورَ أباه الذي سيعامله كابن جارية؟! وتنصُّ التوراة على أن إسماعيل قام بتزويج ابنته من ابن أخيه عيسو بن إسحاق، ولا يمكن أن يوافقَ إسحق على إمضاء هذا الزواج إذا ما كان أبوه قد صرَّح له بأنه أعلى منزلةً وأرفع درجةً من إسماعيل. فإذا كانت الزيارة تسوِّغها أخلاق العائلة النبوية، فإن النسب لا يسوِّغه إلا الكفاءة..

وتروي التوراة أن الأخوين إسماعيل وإسحاق قاما بدفن أبيهما معًا في المكفيلة، ولم يشاركهم في ذلك أبناء إبراهيم من قطورة، وحاضرُ الدَّفن كما يُقال حاضرٌ في التَّرِكَة، على خلاف أبناء قطورة.

وفي سِفر التكوين من التوراة: (أما إسماعيل فقد استجبتُ لطلبك من أجله، سأباركه حقًّا وأجعله مثمرًا، وأُكثِر ذريته فيكون أبًا لاثني عشر رئيسًا)، وأسماء هؤلاء الأبناء مذكورةٌ في التوراة، ومنها قيدار جدُّ محمد، (وهذه

أسماء أبناء إسماعيل مدوَّنة بحسب ولاداتهم: نبايوت، بكر، إسماعيل، قيدار...) وهي أسماء لآباء قبائلَ عربية معروفة في الجزيرة العربية، وأشهرها نبايوت والد الأنباط، وقيدار والد طائفة من القبائل أهمها عدنان التي منها محمد.

ولما كان الله بارك ابنَ خليله البكر، فسنحتاج -لئلَّا نقعَ تحت تأثير الفهم الخاطئ- إلى تركيز النبوَّة في أبناء إسحاق، وهذا يعني عدم استحالة النبوَّة في الأخ الأكبر وفي نسله، وبخاصةٍ أن القرآن أقرَّ أن هناك ميثاقًا تم توثيقه لنسل إسحاق.. وكيف نتخيل أن إبراهيم، أفضل الرجال على وجه الأرض يومها، أغفل الدعاء لنسل إسماعيل بأن يهديَهُم الله إلى دينه بنبوَّة؟!.

وهل يدعو الرجل الصالح النبيُّ خليل الله لأبنائه بالكثرة والسيطرة ويفوته أن يدعوَ لهم بأن يهتدوا إلى دين الجدِّ؟ وكيف سيهتدون إلى دين الجدِّ إذا كان الأنبياء من نسله من سارة محصورةٌ دعوتُهم في أهلهم فقط؟.

هناك من يشكِّك في أحقية إسماعيل في أن يرثَ أباه، بالمعنى الشامل للميراث، في حين ينفي سِفر التكوين هذه الفكرة: (بل الذي يخرج من صُلبك يكون وريثك)، الطريقة الوحيدة لإقصاء إسماعيل من وراثة أبيه هي بالتشكِّيك في

صحَّة نسبه إلى إبراهيم، وهذا لا يجوز في حقِّ خليل الله، ولا تقرُّه التوراة: (وسأقيم من ابن الجارية أُمَّة أيضًا؛ لأنه من ذرِّيتك).

ومن هنا أفهم أنا أمرًا آخرَ جيدًا، هو أن الله أطلع إبراهيمَ على أن نسله سيتكوَّن منه أُمَّتان، وبالفعل لم يتكوَّن من أبنائه من الزوجة الثالثة قطورة أمةٌ بالمعنى الشامل، بل أنساب اختلطت مع قبائل العرب المجاورة ففقدت تميُّزها. ولما كان اليهود في ثقافتهم يركزون على المعنى القومي للانتساب إلى إبراهيم، فإنني أستطيع أن أتفهم اعتقادَهم أن الله يبشر إبراهيم بإقامة أمَّتين من نسله، دون أن يكونَ لهذا دلالة رسالية وإيمانية. حتى إننا لا نشعر لدى قراءة التوراة أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا أكثرَ من آباء. بل هناك الكثير من اليهود من لا يَعُدُّونهم أنبياء! وإن كانت الأبوَّة ترفعهم أعلى من رتبة النبوة عندهم. ويذكر القرآن أن يعقوب حين حضره الموتُ جمع أبناءه وسألهم عمَّن سيعبدون من بعده؟ فقالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق.

كون هاجَر جارية، لا يعني أن نسلها أقلُّ مكانة، بدليل أن يعقوب أنجب من حُرَّتين وجاريتين ومنهم جميعًا خرج الأسباط الاثنا عشر لليهود، ولو صحَّ الحكم على نسل هاجَر

بالدونية لصح أيضًا على أبناء الجاريتين اللتين أنجب منهما يعقوب أربعةَ رجال، توالد منهم أربعة أسباط من الاثني عشر، ولا يمكن أن يكونَ يعقوب أعدل من جدِّه إبراهيم في المساواة بين الأبناء من ناحية شرف الانتساب. وإذا لم يفاضل الله بين الأسباط من نسل يعقوب من حيثُ شرفُ الانتساب، فالمنطق أنه لن يفاضلَ بين نسل إبراهيم من حيثُ شرفُ الانتساب أيضًا.

البشر أحيانًا يحاولون استكشافَ قوانين تحكم الاختيارات الإلهية، وهذا عبثٌ إذا لم يتعلق الموضوع بنصٍّ واضح قاطع، فالوراثة يحكمها في الشريعة التوراتية مفهوم تفضيل البِكْر.. ولو تخيَّلنا أن سرَّ النبوة سيتحرك عموديًّا بحسب مفهوم (الإرث للبكر)، وليس شجريًّا، فكيف نفسِّر أن كلًّا من موسى وهارون من نسل لاوي وليسا من نسل يوسف؟ ثم تلاهما يوشَع وهو من نسل يوسف، ثم داود من نسل يَهوذا، حتى يعقوب نفسه لا يُعَدُّ بكر أبيه.

إذًا يختار الله الأصلح لتحمُّل تبعات الرسالة، ولا يجدي نفعًا أن نقول بالبِكريَّة، فلو قلنا بها لاستأثر إسماعيل بالرسالة وحُجبت عن إسحق، ولو قلنا إنها حُجبت عن إسماعيل لأنه ابن جارية، لكان عيسو البكر أولى من يعقوب، وكلاهما من أم واحدة حُرَّة، ولكان روبيل أولى من

يوسف وكلاهما من أختين حُرَّتين.

وهناك شيء جيد آخرُ، وهو أن النبيَّ أيوب من نسل عيسو وليس من نسل يعقوب، أي أنه ليس من أنبياء بني إسرائيل، وهو مُعتَرَف به عند اليهود نبيًّا، فإذا كان العهد لإسحاق ومن بعده يعقوب -وبرغم ذلك لم تمتنع النبوَّة عن نسل الأخ عيسو، مع أنها امتنعت عن عيسو نفسه- فمعنى هذا أن العهد الذي يوثق مع بيتٍ من بني إسرائيل لا يعني استحالةً تامَّة لظهور نبي من خارج هذا البيت، على أن يكونَ من أفراد البيت الإبراهيمي. إذًا أستطيع أن أطمئنَّ إلى حقيقة مهمة هي: إن العهد كان لإسحاق ونسله بتتابع الأنبياء، وليس بالاحتكار التام للنبوَّة.

وأستطيع أن أقول أيضًا: إن إبراهيم وُعِدَ بأن تكون النبوة محصورةً في نسله عمومًا، وألا تخرجَ من نسله أبدًا، لحكمة إلهية. غير أن إبراهيم نفسَه عاصر نبيًّا من غير نسله وهو النبي لوط، ونفهم من هذا أن نبوَّة لوط كانت قبل الوعد الذي ناله إبراهيم بحصر النبوة في نسله، بلا شك.

ما معنى هذا القول في التوراة: (لترفع البرِّية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، ليترنَّم سكان سالع من رؤوس الجبال، ليهتفوا)، فقيدار سكن مكة، وأحفادُه ما زالوا

هناك حتى الآن، وسالع هذا جبل في يثربَ مدينة النبي محمد. وما هي هذه الترنيمة؟.

واسم إسماعيل، سماه الله به، ومعناه: الله يسمع، ولم يرد عن أيِّ شخص سمَّاه الله باِسْمٍ -في حدود علمي- إلا كان نبيًّا أو قديسًا.

ونستطيع أن نتعرف مكانةَ إسماعيل إذا كنا نعرف مكانة أبيه عند الله، شيخٌ كبير رُزِقَ بأول أولاده وهو في السادسة والثمانين، ونستطيع أن نتخيَّل مقدار الفرحة التي شعر بها، وظلَّ هذا الابن وحيدَه طَوال أربعة عشر عامًا. من المؤكَّد أنه كان يطيل الدعاء لابنه الوحيد إسماعيل، ويطلب من الله بشعور أبَويٍّ قوي أن يباركَه، تلك البركة التي يعرفها يقينُ الأنبياء، وليس بمفهومها عند العامَّة، وأن يجعلَ في نسله نبوَّة، وهذا الدعاء واردٌ في القرآن.

وإذا قِسنا الأمور بمقاييسَ بشرية عادية، فإن من المفترض أن يأخذَ إبراهيم امرأتَه هاجر وابنه إسماعيل ليعيشا في قرية عامرة، ثم يعودَ إلى سارة وإسحاق. ولأنه نبيٌّ كانت له هيبة تقع في قلب أقوى الرجال سُلطة، كما حدث مع أبيمالك الذي حاول أن يأخذَ سارة.. لم يكن مطلوبًا من



إبراهيم إلا أن يمرَّ على قرية أو مدينة ويوصي أحدَ كبار الناس القاطنين فيها بأن يرعى أهله، وسيرعى هذا الكبيرُ أهل النبي بلا ريب... أقول: إذا قِسنا الأمور بمقياس بشري سنحكم على قراره النأيَ بأسرته المكوَّنة من امرأة وطفل رضيع إلى مكة التي كانت وقتها خالية من السكَّان، وليس فيها أثر للماء، لقد كان قرارًا قاسيًا جدًّا جدًّا! فحتى لو كان يريد أن يتخلصَ منهما، لفعل ما قلناه سابقًا، وهو أن يتركَهما عند كبير من الناس، و طبعًا هذا ليس مرادَه، بدليل ما ذكرته سابقًا عن الزيارات المتبادلة، والدعاء والاستجابة من الله. إذًا هو لن يفعلَ هذا الأمر الذي يبدو قاسيًا إلا بوحيٍ من الله.

رجل غير عادي، ذهب بامرأته وابنه الرضيع الوحيد الذي رُزقه بعد صبر، إلى مكان غير عادي، من المؤكَّد أنه ذهب لغاية غير عادية.. بمعنى أنه لم يتركهما في رعاية كبير من الناس، بل تركهما في رعاية ربِّ الناس جميعًا. والقرآن يورد دعاء إبراهيم عندما ترك هاجَر وابنها هناك: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ماذا تبقَّى؟ بعض الناس يقول: لكنه ابنُ جارية! وعجيب أمرنا نحن المسيحيين! كلنا نقول: أبونا إبراهيم، سواء كنا ساميِّين بالأصل أم لا، ونستكثر هذا النسبَ على إسماعيل الابن المباشر لإبراهيم! نقلِّل من شأن رجل دعا له أبوه، واستجاب الله له بنصِّ التوراة!

وإذا كانت هاجَر جارية بنصِّ التوراة، فإن سارة نفسَها أخت إبراهيم بنصِّ التوراة! بمعنى أصح، نحن نتكلم بعصبية ليست لنا، بل هي لأبناء إبراهيم.. ونتكلَّم على عصر مختلف لم نشهده ولم ندركه، كان الرجال فيه يُنجبون من الجواري، ومن أخواتهم أيضًا، بحسب التوراة! وعمومًا معظم قراء الكتاب المقدس يتبنَّون مشاعرَ سارة تجاه هاجر وابنها، وهي مشاعرُ نسويَّة طبيعية. لكن ما المسوِّغ أن يكونَ إحساس سارة نفسُه تجاههما لدى شخصيات معاصرة ومنفتحة؟ ولماذا لا يتملَّكنا شعور إبراهيم نفسه كما ورد في التوراة؟ وهو: (فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها؛ لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق. فقبح الكلام جدًّا في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضًا سأجعله أمةً لأنه نسلك).



وأنا برغم عدم اكتراثي بمفاهيمَ عنصرية ارتبطت بهاجر وابنها ولم ترتبط بجاريتَي يعقوب وأبنائهما، أحب أن أشيرَ إلى أمر غير مهم، وهو أن الملوكَ لا يقدِّمون جواريَ هدية بالصورة المتخيَّلة للجواري، فجواري الملوك المصريين كان من فخر أيِّ مصري من الطبقة العُليا أن يتزوَّج إحداهن، وظل هذا مشتهَرًا حتى في ظلِّ أسرة محمد علي باشا حاكم مصر، فكان من الأمور العاديَّة أن تجد شخصًا ذا مكانة يفتخر بأن جدَّته هي من عتائق الباشا الكبير.

أعتقد أنه علينا أن نقرأ التوراة بحذر، ونفحصَ ما ليهوه، وما للبشر.





المحن والعقم

المحنُ كانت رفيقَ درب الأنبياء، لا خلاف في هذا، أما العُقْم فلبعض الأنبياء تَجرِبَة معه لا تخلو من دلالة.. فالنبي زكريا عاش طويلًا هو وزوجته بلا ابن، ودعا زكريا ربَّه فاستجاب له ورزقَه يوحَنَّا المعمدان، أو يحيى كما في القرآن. لكن من هو يحيى؟ إنه نبيٌّ أيضًا كأبيه.

وعانى إسحاق عُقمَ زوجته رفقا، فدعا أبوه إبراهيم له الله، فرزقه توءمَين هما عيسو ويعقوب. لكن من هو يعقوب؟ إنه نبي.

وخليل الله إبراهيم نفسُه كان قد وصل سن السادسة والثمانين بلا أبناء ترثه، فدعا الله فرزقه إسماعيل. لكن من هو إسماعيل؟ هو نبيٌّ عند المسلمين. ولا أدري إذا كان يجوز القياس على الحالتين اللتين تلتا إبراهيم ورُزق فيهما النبيَّان بنبيَّين. على أني أدرك أن أنبياء الله إذا ما سألوا ربَّهم الذرية فمن المؤكد أنهم يعزِّزون هذا السؤال والتوسل بأن يرثَ الولد المرجوُّ من الله مهمةَ الدعوة لدين الله، ومن المؤكد أن هذا شعورٌ صادق من الأنبياء، وليس مجرَّد تزيين للرجاء.

من غير الشاذ عندي أن يهبَ الله خليله نبيَّيْن من صُلبه استجابة لدعائه بأن يُرزق بمن يكمل المسيرة.

وإذا فحصنا عن الاختبارات الصعبة التي مرَّ بها الأنبياء، واجتازوها بنجاح، فإننا نلحَظ أن تلك الاختبارات لا تُفضي إلى لا شيء، بل هي تُفضي إلى تعزيزٍ غير عادي. . فهاهو ذا الرجل الذي أُلقي في النار، إبراهيم - بحسب القرآن؛ إذ لم يرد أيُّ شيء في التوراة عما قبل شيخوخته - يخرج منها سالمًا، ثم يُمَكَّن لأولاده وتنشأ منهم أمَّتان عظيمتان، وتُحصَر النبوة في بنيه، ويعلو ذكرُه في الكتب السماوية الثلاثة، عطاءً في حجم الاختبار الصعب.

وموسى الرضيع الذي وُضِعَ في تابوت (صُندوق) صغير كان من الممكن أن يسحبَه التيار إلى برٍّ غير آمن، أو أن يتلقَّفَه تمساح من التماسيح التي كانت تجوب نيلَ مصر آنذاك، لكن بدلًا من هذا شاء له الله أن يتربَّى وينشأ في بيت حاكم مصر! ليتمكَّن بعد ذلك بمدة طويلة من القضاء على هذا الفرعون الجبَّار وطَغامه.

ويوسف الذي أُلقِي في أعماق بئر، تمرُّ الأيام، ويسجد له من ألقَوه، ويصبح نافذَ الحكم في أرض مصر.

فعلى ما أرى: إن العُقم الذي تليه منحةٌ من الله لأنبيائه،

له ما بعده، وعليه فأَنظر إلى نصِّ التوراة الذي يغفل ذكر نبوَّة إسماعيل، بلا ضَجَر، انطلاقًا من أن التوراةَ كانت مهتمة بمسيرة بني إسرائيل. وأنا غيرُ ملزمة بأن أقول: إن الحقَّ لا يقع خارج التوراة، وغيرُ ملزمة بالاعتقاد بأن كلَّ ما في التوراة حق.

هناك محنة ربما توضِّح الأمر أكثر من ذلك، وهي محنة ذبح الابن الوحيد، فإذا نظرنا إلى سِفر التكوين؛ فإن فيه ما قيل لنبيِّ الله إبراهيم بعدما نجح في اجتياز الاختبار: «خُذ ابنك وحيدَك إسحاق الذي تحبه.. علمت أنك تخاف الله ولم تمنع ابنك وحيدَك عني». ومن التوراة نعلم أن إبراهيم رُزق بإسماعيل وهو في السادسة والثمانين، ورُزق بإسحاق وهو في المئة، ولا يمكن أن يكون الابن الوحيد إلا الابن البكر. كلمة (وحيدَك) كرِّرت مرتين في النص، يعني شبه مؤكدة، وربما حشر أحدهم كلمة إسحاق في النصِّ لأسباب قومية بحتة، ولمعرفتهم أن الاختبارَ له ما بعده. وليس صحيحًا أنَّ من غير المهم تحديدَ أيهما الذبيح. لكنَّ من فعلها لم يكن يمتلك الذكاء الكافيَ لمسح كلمة (وحيدَك) التي كررت، ليمسحَ بصمات يده!.

هناك دليل آخر، وهو أن إبراهيم وسارة قد بُشِّرا بإسحاق، وأن إسحاق ستكون له ذُريَّة من بعده.. وعليه فلو



رأى إبراهيم في الرؤيا أنه يذبح إسحق، فسيحسبها أضغاثَ أحلام! فكيف يَذبح من بُشِّر بأن له ذرية، في حين ذبيحه لم يتزوج بعد؟! وكذلك كان سيتعجب أكثر لو كان الوعدُ -كما في التوراة- في بشرى مباشرة من الله لإبراهيم. الله لن يُخلف وعده طبعًا، الأمر بذبح الابن الوحيد الذي جاء بعد صبر طويل، محنةٌ شديدة للأب، وللأم، وللابن نفسه. إذًا لا بد من أن يكونَ وراءه أمر عظيم. . الموضوع ليس فقط اختبارًا لقوة إيمان إبراهيم. الله فداه بأضحيَّة، لأنه لابد أن يعيش.

ثم نركب عجلة الزمن، وتتحرَّك بنا زُهاء **٢٥** قرنًا بعد إبراهيم. أمرٌ عجيب عجيب! الجَدُّ المباشر للنبي محمد نَذَر لو منحه الله عشرة أبناء عزًّا له، أن يذبح أحدَهم لله! هذا دعاء قد يُستجاب وقد لا يستجاب. واستُجيب الدعاء، وأصبح لدى جدِّ النبي عشرةُ أبناء كبار، أخبر الأب أبناءه بنذره، وذهب إلى الكاهن ليُجريَ القرعة، فخرجت على (عبد الله) والد النبيِّ محمد، ربما مصادفة، وقد كان أحبَّ أبنائه إليه. ومنع الناسُ الأب أن يذبحَ ابنه، وأشاروا عليه بالذهاب إلى عرَّافة كانت مشهورةً آنذاك، فأمرته أن يجريَ قرعة بين عبد الله وعشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرًا من الإبل حتى يرضى الله فتخرجَ على الإبل.

وكانت القرعة كلَّ مرة تقع على عبد الله، حتى بلغت الإبل مئةً، فوقعت القرعة عليها، فنُحرت. وقوانين الاحتمال لا تعطي احتمالًا كبيرًا لحدوث الفَرَج بعد عشر جَولات في احتمالين متساويين في الفرصة. هذه القصة لا تُرَدُّ لأن الجَدَّ كان سيد قريش، وأمره مشهور بين الناس في وقته، ولا تُرَدُّ لأنها كانت سببًا في تغيير قيمة الدِّيَة عند عرب الجزيرة من عشر إلى مئة من الإبل، بمعنى أنها غيرت عُرفًا مستقرًّا.

لو ضممنا الحادثتين، وضغطنا بخيالنا هذا الزمن الواسع الممتدَّ **٢٥** قرنًا، فسنجد أن إسماعيل قد افتُدي، فعَبَرَت ذراريه بإرادة الله من العَدَم إلى الحياة، وعبد الله افتُدي أيضًا، فعَبَرَ محمد، محمد فقط، من العَدَم إلى الحياة، لماذا؟.

لأن عبد الله تزوج بعد الحادثة ومات قبل أن يولدَ ابنه النبي محمد، وكأنه عَبَر به في صُلبه من العَدَم إلى الحياة وأنجز المهمَّة ومات.

أنا لا أرى أن هذا الأمرَ يخلو من دلالة، والحادثتان معًا لا يمكن أن تكونا خاليتين من الدلالة، فلو قلنا: إن احتمالَ أن يعزمَ شخص ما على ذبح ابنه ثم يردَّه شيء مقنع عن هذا العزم، يساوي هذا الاحتمال بالفرض ١/ ١٠٠٠٠٠

(قلته بسبب العزم وليس بسبب الرجوع عن التنفيذ)، إذًا فاحتمال أن يتكرَّر هذا في آباء شخص واحد مرتين سيساوي ١/ ١٠ بليون! وما حدث لعبد الله كان أيضًا غريبًا! فوقعت القرعة عليه دون إخوته التسعة، وتكرر الاقتراع ١٠ مرات، وكأن الله يريد أن يفديَه بقيمة عالية! لا يمكن أن يكون كلُّ هذا مصادفة، وبخاصة إذا ما مرَّ فوق تلك الألغام القدرية شخص جاء وقال: أنا النبيُّ لا كذب. فلنبحث عن يد الله في الأحداث الكُبرى، وفي كتب الآخرين، ولنحكِّم عقولنا. . التجرِبتان اللتان مرَّتا بآباء محمد، هما محنة، وكذلك هو عقمٌ أزاله الله، فذبحُ اثنين لم يتزوجا وينجبا هو مشروع عقم، وما تلا ذلك من رفع المحنة والعقم لابد أن يكون آيةً من آيات الله.

وعذرية مريم هي عقم، وولادتها يسوع وهي غير متزوجة هي محنة، جَعلت من لا يدرون آيات الله يتهمونها في شَرَفها! وما تلا ذلك كان ميلادَ آية من آيات الله، المسيح عيسى ابن مريم. نحن المسيحيين نتابع آيات الله في التوراة ونؤمن بها، ونؤمن بآيات الله في المسيح، والمسلمون يتابعون آيات الله كلَّها بلا تعصب، ويؤمنون بما أُنزل إليهم وما أُنزل إلى غيرهم، وموقفُنا منهم يشبه موقفَ اليهود من دعوة المسيح.



لكن الفرعَ الذي لا يُخرج ورقةَ نبوة خضراء واحدة طَوال **٢٥** قرنًا، ألا يُعَدُّ فرعًا بشريًّا عاديًّا لا يحمل سرَّ النبوة، إذا ما قيس بالفرع الآخر فرع إسحاق؟

لو رجعنا إلى مدلول ما كتبتُه عن العُقم المؤقَّت الذي مر على أنبياء الله، ودرسنا التجرِبة، فسنقول: إن هذا الفرع الذي كان عاقرًا، عندما يُنتج سينتج آيةً من آيات الله.

ربِّ اجعلني مدركةً لحكمتك هنا وهناك، ولا تجعلني ضيقةَ الأفق.

هذا ما أفهمه من عدم وجود أنبياء بين إسماعيل ومحمد، وأحاول أن أفسِّرَ مزايا ما حدث لو ظهرت النبوَّة في فروع أبناء إسماعيل، ولنتخيَّل خمسة أنبياء في خمس قبائلَ من نسل إسماعيل في حِقَب مختلِفة. حتمًا سوف تتوارث القبائل ديانةَ أجدادها. ونظرًا للعصبية المتأصِّلة عند العرب، فسيكون من الصعب جدًّا على أي رسول يأتي بعد ذلك أن يجمعَ كل القبائل على رسالته، كانت كل قبيلة ستتمسك برسالة نبيِّها الذي مرت عليه القرون، حتى لو كانوا لا يتذكرون من تعاليمه إلا القليل، فسيتحوَّل إلى مصدر للفخر، ولدعم سُمعة القبيلة وتوحيد كِيانها.

ومثالًا على ذلك: ظهر نبيٌّ كذاب من قبيلة اسمها ربيعة



أواخرَ أيام النبي محمد، فقال أحد أتباع هذا النبيِّ الكذاب من أبناء قبيلته: «أشهد أنك كذَّاب وأن محمدًا صادق، لكن كذابَ ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر»، يقصد أنه يفضل كذابًا من قبيلته على نبيٍّ صادق من قبيلة أخرى! بل إن من يعرف التركيبةَ النفسية التي تميل إلى العصبية القَبَلية والفخر، وكذلك حب الاستقلال والفردية والكراهية الرهيبة للمركزية، عند العرب، ليَعْجَب مِن هذا الذي استطاع أن يجمعَهم ويوحِّدهم ويجعلهم يدينون له بالولاء، ويضعونه فوق الأب والقبيلة وكل شيء! علم الاجتماع ليس فيه معجزات، وإن كنت أعلم أن هذه معجزةٌ في علم الاجتماع. وأعتقد أن أيَّ شخص يمتلك قدرات متميزة فضلاً عن اللباقة والعلم في عصرنا الحالي، لو استدعَيناه إلى الزمن الماضي ليخوضَ تجربة محمد في عصر محمد، أعتقد أنه سيفقد الثقة بنفسه تمامًا وسيعود بجروح نفسية غائرة.

أعود لأقول: إن العرب لم يكن لديهم شخصيات تمثل رمزًا دينيًّا إلا إبراهيم وإسماعيل، لقد كانا الفكرةَ الجامعة التي لم يدَّعِ أحدٌ بعدها المواصلة والاقتداء.

وإن عنصرَي الأمية وغياب القدوة من نبي سابق مرَّ عليه قرن أو قرنان، كانا معًا يشكلان نافيًا لفكرة أن محمدًا تعلم من عالم أو تأسَّى بسيرة نبي. من السهل أن تتهم شخصًا بأنه



جمع أخبار أنبياء سابقين من العرب، ولفَّق فكرة دينية جديدة، لكنَّ غياب هؤلاء الأنبياء المفترَضين كان من دلالات التبرئة من الكذب.

ومن عصر إسماعيل إلى عصر محمد لم يدَّعِ أحدٌ النبوة من العرب، وهذا يعني أن الفكرةَ لم تكن حاضرة في المخيلة العربية على الإطلاق، في حين كان في بني إسرائيل المئات من الأنبياء الكَذَبة، حتى فقدت كلمة (نبي) هيبتها لدى اليهود! ففي عصرٍ واحدٍ كان هناك أكثر من أربع مئة نبي! منهم نبيٌّ واحد صادق. الطريق كان نظيفًا أمام محمد، فلم يعكِّر صفوَ دعوته وجود أنبياء صادقين أو كَذَبة قبله. وقد لا تكون مصادفة ألا يدعيَ عربيٌّ واحد النبوةَ قبل محمد، أو أن يكون لدى العرب هيبةٌ لكلمة نبي.

في بيئة بنى فيها نبيُّ الله إبراهيم وابنه إسماعيل بيتًا لله، وفيها بعض الباحثين عن الحقيقة، وفيها أحفاد لإبراهيم.. المفترض أن يظهرَ قبل محمد مدَّعٍ للنبوة. أنا أعتقد أنها ليست مصادفة، بل حكمة إلهية، هذا هو العُقم في المدة بين إسماعيل ومحمد، فترة عُقم طويلة، ويجب أن نفهمها.

لننظر إلى كتاب إشعيا: «سبحي أيتها العاقرُ التي لست تلدين، أنشدي بالحمد وهلِّلي أنك لم تلدي، من أجل أن



الكثيرين من بني ذات الوحشة أفضل من بني ذات البعل، يقول الربُّ: أوسعي موضع خيمتك». العاقر هي مكة، وذات الوحشة هي هاجر، وذات البعل هي سارة، وللتثبُّت من وصف الوحشة، فإن هذا الوصفَ وارد في التوراة بخصوص إسماعيل، أنه سيكون إنسانًا وحشيًّا، هذا هو العُقم الذي له ما بعده!

وفي أشعيا أيضًا: «ولتضيقن عنك قِفارك وخراباتك، والأرض التي ألجؤوك إليها، وضغطوك فيها؛ من كثرة سكانها والراغبين فيها، وليهربن منك من كان يناوئك ويهتضمك، وليقولن لك ولد عُقمك: أيتها النزور الرقوب، إنه قد ضاقت بنا البلاد فتزحزحوا وانفرجوا فيها لتتسع في فيافيها. وستحدثين فتقولين: من رزقني هؤلاء كلهم، ومن تكفل لي بهم».

وماذا عن الرَّحِم الخِصْب كثير الإنجاب؟ ستتوقف خصوبته، ولما كان إبراهيم وُعد من الله بأمَّتين من نسله عظيمتين، فالخصوبة ستذهب إلى الرَّحِم المكان وهو مكة، وإلى الرَّحِم الأمَّة وهم بنو إسماعيل. لذا إذا ذهب الفضل عن بيتٍ من بيوت إبراهيم، فسيذهب إلى بيت آخرَ من بيوته؛ لأن النبوةَ لن تخرج عن بنيه، وهذا فضلٌ من الله على خليله، وفي هذا يقول المسيح: «ولذلك أقول لكم: إن

ملكوتَ الله يُنـزع منكم ويعطى لأمَّة تعمل أثماره».

وبخصوص فرع الشجرة التي لم تثمر، فإليكَ الآيات التي توضح الأمر تمامًا، ولا تغيب عن ذهنٍ واعٍ: «إني أنا الربُّ وضعت الشجرة الرفيعة، ورفعت الشجرة الوضيعة، وأيبست الشجرة الخضراء، وأفرخت الشجرة اليابسة، أنا الربُّ تكلمت وفعلت». (حزقيال ١٧/ ٣٢).

الكلمات واضحة، وما حدث من محمد يترجم هذه الكلمات. إنه الإنجاب بعد العُقم، كما أن ما حدث مع عيسى هو بداية العُقم وانتهاء عهد النعمة في بني إسرائيل.







الدهشة

في بيئة لا تمثِّل حاضرةً من حواضر العالم، ومناخٍ ديني مشبع بعبادة الأصنام.. ظهر شاب أميٌّ، هادئ غير مجادلٍ ذو خلق رفيع، في مكة تلك البلدة التي لها مكانةٌ دينية واجتماعية في الجزيرة العربية. وقال: لقد أُوحي إلي.. فأحدث بذلك دهشة! علت وجوه أهله، حتى آمنوا ما بين مبادر ومتلكِّئ، لكنْ ما زالت تلك الدعوةُ مدهشة لبعض الناس في العصور الحديثة، وما زال الأمر محلًّا للبحث والنقاش.

في عصر النبيِّ محمد، لم يكن هناك أي ترجمة عربية للتوراة والإنجيل، وقد كان محمد أميًّا لا يقرأ ولا يكتب. وفي ذلك العصر كان العرب ممن لديهم معرفةٌ ذات جدوى بالتوراة والإنجيل قليلين جدًّا، وكان هؤلاء من المتعلمين الذين تحرَّكوا بحثًا عن إجابات عن أسئلتهم المتعلقة بالوجود، وبحقيقة الله.

وقد بلغ محمد سنَّ الأربعين دون أن يحاورَ أيَّ شخص ممن لديهم حظٌّ من المعرفة باليهودية والمسيحية، ولم يكن محمد ممن يمكن وصفُهم بالباحثين عن الحقيقة نتيجةَ حوارات مع أهل العلم، ولم تكن مكة بلده موطنًا إلا

للوثنيين. فاليهود يعيشون في يثرب (المدينة) وحوالَيها، والمسيحيون في اليمن، وفي المناطق المتاخمة لدولة الروم. أما مكةُ فيسكنها الوثنيون فقط.

لكنَّ الوضع تغيَّر بعد الوحي توًّا، إذ حَفَلَ القرآن والأحاديث النبوية بالكثير من أخبار الأمم السابقة، ومنها أخبار بني إسرائيل، وأخبار رسالة المسيح.

هذا الكلام الذي يقوله شخص أميٌّ، كان يحفل بالكثير من الفصاحة والبراعة اللغوية التي أدهشت الوثنيِّين الذين كانوا على درجةٍ رفيعة من الإحاطة بالعربية وسُبُل البيان، على نحو لا يتوافر لمعاصر يحاضر في الجامعة في علوم اللغة العربية. كيف نُظِمَ هذا الكلام الذي هو باللغة العربية ومفرداتها، ومع ذلك يَعجِزُ معاصروه عن أن يأتوا بمثله! إنه تحدٍّ حتى لأمراء البيان وأئمة الفصاحة، لقد خرج هذا الكلام من فم رجل بلغ الأربعين من عمره دون أن يَنطِقَ شعرًا، ودون أن يجلسَ إلى الشعراء!.

وإن احتواء هذا الكلام على أخبار الأمم السابقة يزيد الوثنيين دهشة! فهم يُدركون جيدًا أنه لا هو ولا هم لديهم هذه المعرفة أصلًا، فما وصل إليهم ما هو إلا نَزْرٌ يسير، وقد جادله اليهود بعد ذلك في شِبه اختبارات تعجيزية، وذلك



بسؤاله أسئلة متخيَّرة يدركون أنه من المفترض ألا يملكَ إجابة عنها، ولكنه أدهشهم بإجابات بلغت من الدقة الغاية!

وقد يتبادر إلى الذهن سؤالٌ طبيعي: إذا كانت تلكَ معجزة، فلماذا لم يؤمنوا جميعًا؟.

والإجابة هي: إذا كان عدم الإيمان بنبوَّة شخص يُحيي الموتى، واردًا وحاصلًا، فإن عدم الإيمان بنبوَّة شخص أميٍّ، وارد أيضًا، ولكن مع ذلك آمن بعض أولئك اليهود، ومنهم علماء دين، مثل عبد الله بن سلام وغيره.

هناك أمر آخر، وهو أن قومه كانوا لا يُلقون بالًا لأخبار الأمم السابقة، وكانوا يَصِفونها بالأساطير، ومعنى هذا أن تلك الأخبارَ لم تبهرهم، ومن ثَم لن ينشط في تقديم المزيد من تلك الأخبار، بل يكتفي بأمثلة يسيرة. ما الذي يجعل شخصًا عصريًّا يحاضر في موضوع غير مهم لدى جمهوره؟!.

ومن هنا كانت تبدو مهمَّة محمد صعبة، بل مستحيلة، وَسْط قوم دهريين، ليس لديهم حسٌّ ديني عالٍ متعلق بالغيبيات. النبي عيسى كان يخاطب قومًا لديهم علم بالتوراة، وبحقيقة الله، وبأخبار الأنبياء، وخاطبهم خطابًا روحانيًّا لتصحيح مسار دينهم. أما محمد فكان يقدم لهم

معلومات تاريخية ليس لديهم فكرةٌ جيدة عن معظمها، ولو كان هناك شخص متعلِّم، ولديه علم بالأديان، ويطمح إلى مرتبة النبوَّة، كان الأجدر به ألا يتكلمَ على أحداث تاريخية دينية لا يعرفها جمهورُه، وهم يشكِّكون فيها، بل يشكِّكون في البعث نفسه.

إن هذا الإصرارَ له دلالتان؛ الأولى: أنه لا يمكن أن يكونَ إصرارًا شخصيًّا، بل لو كان الأمر كله من اختراعه لتحدث عن الأخلاق والروحانيات فقط.. أما أن يُخبرَ الناس عن خروج آدم من الجنة، وقتل قابيل لأخيه، وخروج اليهود من مصر، وعن عيسى والحواريين.. وهم بعيدون تمامًا عن هذا المناخ الديني، وهذا القصص الديني، فهذا يزيد الأمر صعوبة. وأي إنسان يريد لدعوة أن تنتشرَ فإنه يعزف اللحنَ الذي يتوقعه الناس أو يَميلون إليه، مثلما لاءم بعضُ الناس بين رسالة عيسى وثقافة اليونان والرومان بغرض تسهيل انتشار الدعوة.

والدلالة الأُخرى: أن العِبرَة في قصص الأوَّلين ليست حِكرًا على شعب معين، وأن هناك رابطًا بين الديانات السماوية، غير أني ألحظ شيئًا آخر: العرب بطبيعتهم مولعون بالأنساب، وبتاريخ أجدادهم، وكانوا لا يعلمون الكثير عن ديانة إبراهيم وإسماعيل، ولم يتبقَّ منها بينهم إلا شعائر الحج

تقريبًا، إلا أنهم كانوا يوقِّرونهما توقيرًا كبيرًا. وفي هذه الحالة كان من المفترض لو كان محمد مجرد رجل طَموح يدَّعي النبوة، أن يخصِّص مقدارًا كبيرًا من كلامه على الأوَّلين لإبراهيم وإسماعيل، وأبناء إسماعيل، وذِكر مناقب هؤلاء الأجداد بطريقة عذبة ومؤثِّرة. نعم هناك سورة في القرآن باسم (إبراهيم) لكنَّ الاهتمام ببني إسرائيل كان واضحًا فيها جدًّا، حتى سورة إبراهيم بدأت بذكر موسى قبل إبراهيم، ولا مجال للمقارنة بين عدد مرات ذكر إسماعيل في القرآن، وذكر إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى والأسباط، والأحداث المهمَّة التي مرت ببني إسرائيل.

أما قيدار، الذي ذُكر في أكثر من موضع في التوراة، فلم يُذكر في القرآن، مع أنه جَدُّ محمد، وأحد أبناء إسماعيل. أنا لا أعتقد - بحسب المنطق - أن شخصًا عربيًّا في القرن السابع الميلادي، يعيش بين قوم متعصِّبين وقَبَليين، سيفعل ذلك أبدًا إذا كان الكلام من عنده.

وهناك سورة قصيرة باسم (قريش) وهي قبيلة النبيِّ محمد، السورة تذكِّرهم بفضل الله عليهم، وتأمرهم بعبادة الله، ولم تذكر فضائلَهم ومنها رعاية الحجيج. نص السورة لا يُشبع شهوة قبيلة عربية للفخر.

وقد يتبادر إلى ذهن أحدنا سؤال: لعل محمدًا أراد بإكثاره من ذكر أنبياء بني إسرائيل أن يكسب اليهود في صفِّه، ولعله استعان بعلوم التوراة؟.

لكنْ أين اليهود في مكة؟ لا وجودَ لهم في السنوات الأولى الصعبة من الدعوة، والأجدر به أن يكسبَ القبائل العربية. كل ما عليه أن يتحدث عن فضائل أهل مكة، ومناقب إبراهيم وإسماعيل، وأن يصحِّح بعض السلوك الخاطئ، لكنه حارب معظمَ الموروث الديني، والكثيرَ من الموروث الاجتماعيِّ والاقتصادي! ثم إن الذي يودُّ أن يحابيَ اليهود، لن يأتي بتأكيد ممارستهم قتلَ الأنبياء. أو يؤكد رسالةَ المسيح وظلمَهم إياه! ولا يستطيع الإنسان إذا ما اقتبس من عالِم فقرةً من هنا وفقرةً من هناك، لا يستطيع آنذاك أن يقدِّم مع تلك النصوص التي اقتبسها نقدًا لاذعًا للعالِم نفسه، بكلِّ ثبات نفسي وثقة، الإنسان دائمًا ينكمش أمام أساتذته.

ثم إن السرد في القرآن لحقائق تاريخية، يختلف تمامًا عن نمط التوراة في السرد. على سبيل المثال: بحسب التوراة كان خلقُ العالم في تاريخ يقدَّر بسبعة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد. والحقيقة أنه كانت هناك حضاراتٌ قائمة في ذلك التاريخ، منها الحضارة المصرية القديمة. وهناك



روايتان لمدة الطوفان: في رواية يهوه (أربعون يومًا فيضانًا)، وفي روايةٍ كهنوتية (مئة وخمسون يومًا فيضانًا)، ولا أدري ما معنى وجود روايتين في كتاب مقدَّس الفارق بينهما مئة وعشرة أيام؟!. إبراهيم وُلد بعد **٢٩٢** سنة من الطوفان، هذا ما يمكن معرفته من التوراة. وقد شَمِلَ الطوفان -بحسب التوراة- كلَّ الأرض وكل الأحياء، باستثناء ركَّاب السفينة. فكيف ظهرت تلك المجتمعاتُ البشرية في نحو ثلاثة قرون؟!. سِفْر التكوين يوحي بأن الطوفان في القرن **٢١** أو **٢٢** ق م، وهي مدة ما قبل العصور الوسطى في مصر القديمة. وفي بابل كانت هناك أسرة أور Ur الثالثة. وهذه الحضارات لم تشهد انقطاعًا نتيجة الطوفان، بل إن الهند والصين كان يُعد سكانهما بالملايين في تلك الحِقبة. إننا لا نستطيع أن نصدِّقَ النص ونكذب التاريخ والأخبار المتواترة، حتى الجيران الأقربون من الفرس كانوا موجودين، بل صحَّح بعضهم المعلومة التوراتية وقالوا: إن الطوفان لم يشمل كلَّ الأرض ولكن شَمِلَ بابل فقط.

إذًا الطوفان إما أنه لم يشمل الأرض كلها، أو كان شاملًا ولكنه حدث في تاريخ سحيق. ومعنى هذا أن هناك تدخُّلًا بشريًّا في التوراة، وهو ليس تدخُّلًا من مؤرخ حاذق يدري ما يدور حوله على الأرض، ويدري شيئًا عن الأمم الأخرى.

القرآن لم يحدد التواريخ والحِقَب بين الأحداث بطريقة السرد البشري المعروفة، بل جعل غايةَ القصص هي العبرة، وليست تأريخًا لحركة شعب بين الأمم، وما جرى له من المعاناة والبطولات والنبوات.

وقد يقال: لعل محمدًا لمس هذا الاضطرابَ فتحاشاه، فأخذ الممكن وترك غيرَ الممكن؟. ولكن هل يُعقل أن يلحَظَ رجلٌ لم يدرس الحضارات القديمة هذا الاضطرابَ في القرن السابع الميلادي، وهو يعيش في بيئة غير علمية، في حين لم يبدأ هذا النقد العلميُّ للكتاب المقدَّس تقريبًا إلا في القرن التاسع عشر. وهناك الكثير من المثقفين المسيحيين المعاصرين يعتقدون أن مجرد فكرةِ وجود خطأ ما في الكتاب المقدَّس هي وسوسةُ شيطان لا أكثر! وعلى العموم فإن الاضطرابَ ما زال موجودًا.

وقد يقال: ربما لاحظ هذا الاضطرابَ عالم يهودي فقدَّم لمحمد نصًّا جديدًا منقَّحًا! والرجل لم تكن لديه الجرأة ليصرِّح بملاحظاته، فاكتفى بأن يكونَ وراء الكواليس مرشدًا للبطل؟!. وأعود فأقول: إن النص ما زال موجودًا، وعلماء اللاهوت الممتازون متوافرون، والأمر أصعب في القرن السابع الميلادي مما هو عليه الآن، والأجدر ألا يكونَ هذا الشخص الذي أوحى لمحمد عالمًا يهوديًّا أصلًا؛ لأن النص

ليس منقحًا فقط من أغاليط توراتية، ولكن فيه ذكرٌ لقتلهم الأنبياء، ولعبادتهم العِجل، ولرسالة المسيح.

إذن ألا يمكن أن يكونَ الذي قدَّم النص عالم مسيحي؟. ولكن المسيحيين أيضًا يؤمنون بقدسية التوراة، والقرآن نفى ألوهيةَ المسيح نفيًا قاطعًا. إذن لعل هذا الشخصَ من المسيحيين الذين كانوا في القرن السابع الميلادي، ولم يؤمنوا بألوهية المسيح؟. لكن لماذا يصنع هذا المسيحيُّ نبيًّا عربيًّا لتغيير مسار الديانتين اليهودية والمسيحية؟. وأنى لشخص بهذا الذكاء الهائل والمعرفة بالكتاب المقدس أن يُؤْثِرَ بكلِّ ما تمخَّض عنه ذهنه المتقد شخصًا آخر غير معروف، وقليل المال، وليس ممن تشير إليهم القبائل العربية بالرئاسة والزعامة، وهو أميٌّ، ولا يهوى الظهور؟!.

ألا يبدو ما أفكر فيه سخيفًا؟ كما لو قيل: إن الذي كان يُحيي الموتى هو شخص آخرُ كان يسير خلف المسيح!.

وعلى أي شيء كان يستند هذا العالم المسيحي الذكي وهو يُعِدُّ انقلابه الديني؟. على نص من الأناجيل الحالية؟. لعله اعتمد على نسخة من إنجيل من الأناجيل التي لم يعترف بها مجمع نيقية (٣٢٥ م) وأتلفها! مثل الإنجيل المسمى إنجيل (برنابا). حقًّا إن إنجيل (برنابا) أنكر ألوهية المسيح،

وذكر أن الذي صُلب هو يهوذا الخائن الذي ألقى الله عليه شَبَهَ يسوع. إذًا هذا هو الإنجيل الذي اعتمد عليه العالم الذي أعطى محمدًا القرآن. ولكن هذا الإنجيلَ كان من الكتب التي أصدر البابا جلاسيوس الأول الذي جلس على عرش البابوية أمرًا بمنع مطالعته. ربما هو، لكنَّ هذا الإنجيلَ مذكور فيه اسم محمد باللفظ الصريح على أنه رسولُ الله.

ما هذا؟! كيف يذهب شخص بناءً على إنجيل معه، ويقول لآخر: اسمك موجود هنا. أنت رسولٌ، اطمئن، سأصنع لك نصًّا دينيًّا تقدمه للناس؟!. والأعجب أن اسم محمد لم يكن مشهورًا بين العرب، ويكاد يكون نادرًا.

لكن لا يستقيم أن يكون إنجيلٌ ما دليلًا على نبوة محمد، وهو في الوقت ذاته دليلٌ على كذب نبوته!. والمسلمون لم يستخدموا هذا الإنجيل أو أي إنجيل غير الأربعة المعترف بها، للمناظرة مع المسيحيين في أيٍّ من العصور السابقة. ولم تُذكر عن هذا الإنجيل كلمةٌ واحدة في مؤلفات علماء المسلمين القدامى. وأول ترجمة لإنجيل برنابا كانت في القرن العشرين، والإنجيل يوفر للمسلمين ما يغني عن صداع المناظرة، ولا يمكن أن نقولَ إن رجلًا مسلمًا قد ألَّفه؛ لأن هذا الإنجيل مذكور ضمن ممنوعات البابا قبل دعوة النبيِّ محمد. وليس هناك حلٌّ من القلق الذي يسببه

هذا الإنجيل للمسيحي إلا أن نفترضَ أن إنجيل برنابا الممنوع قبل عصر محمد قد تناول أحدُ المسلمين نسخة منه، وتصرَّف فيها، ووضع اسم محمد ونبوءات عنه! ولكنه حلٌّ غير مريح؛ لأن النسخةَ الوحيدة خرجت من مكتبة البابا، وليس من عند سلطان عثماني. ولن يتصرَّف شخص عاقل في نسخة إلا إذا ضمن أنها الوحيدةُ في العالم!.

لكني لا أصدق عندما أُجهد عقلي في التخيل، أن هناك شخصًا لصيقًا بمحمد، قد أعطاه القرآن. كما أنني لا أستطيع أن أتخيَّل أن هناك شخصًا ما كان ملازمًا لأينشتاين، يمده بالأفكار الجديدة المبهرة، في حين يتقمَّص أينشتاين الدور بثقة بالنفس، إلى درجة أنه لم يشكَّ أحد في ذلك!.

حتى هذا الإنجيل الذي يمثل انقلابًا على المعتقد المسيحي الحالي، لا يتفق إلى درجة التطابق مع التعاليم الإسلامية، ومن الاختلافات بينهما: أن المسلمين يؤمنون بأن يسوع هو المسيح، وليس محمدًا كما جاء في إنجيل برنابا. وإن ذكر محمد تكرر فيه كثيرًا، ولو كان الذي دسه شخصًا ذكيًّا لكفاه أن يدسه في موضع واحد فقط.

ومن كان على شيء من العلم بالإسلام، سيعرف شيئًا آخر، وهو أن أي مسلم سيدس إنجيلًا على المسيحيين، لابد

أن يندِّد بعقيدة التثليث، هذا هو المنطق، وهذا غير موجود في إنجيل برنابا، لسبب يسير يحتاج إلى عقل مستنبط، وهو أن التثليث إنما رسخ بعد الإقرار بألوهية الروح القدس في مجمع القسطنطينية (٣٨١ م)، ومن هنا ظهر في الإنجيل تنديد بمن يدَّعي ألوهية المسيح، ولا كلام مطلقًا على عقيدة التثليث.

عودة إلى الموضوع الأساس:

من هو هذا الشخصُ غير المسلم الذي كان مرافقًا للنبي محمد، ويقدم له في مناسبات متعددة إنتاجًا جديدًا؟!. هناك على سبيل المثال نصوص قرآنية نزلت في أثناء المعارك، بل تتنبأ بنتائجها، هل كان هذا الشخص مراسلًا حربيًّا؟!. وكيف يقدم له نصًّا فيه نبوءات عن أمور لم تقع، بل هي غير متوقعة الحدوث؟!.

من المؤكد أن هذا الشخص نبي.

لكن هل يُعقَل أن يدلِّس نبي على البشر؟! ويقدم بدلًا من نفسه (دوبلير) يعمل لحسابه (٢٣) سنة؟!.

ومن أين سيستمد النبي محمد قوَّته الروحية الواضحة في سيرته، التي تسمح له بالمواصلة وتحمُّل الصعوبات؟! حتى يحقق تلك النجاحات التاريخية التي شبَّه أمرها (توينبي) كأن تحتل دولةٌ مثل كوبا كاملَ روسيا ونصف الولايات المتحدة

الأمريكية! وكيف يكون هناك شخص يؤمن برسالة المسيح يصطنع ديانة جديدة؟!.

لعل هذا الشخصَ كان مؤمنًا بالمسيحية وتركها البتة.

لكن كيف تركها تمامًا وهو يثني في النص على رسالة المسيح، ويذكر فيه معجزاته، ويصف أمه بأنها قديسة، ويؤلف سورة كاملة باسم (مريم)، ويذكر في سورة أخرى أن الله طهَّرها واصطفاها على نساء العالمين؟!.

لعله أراد أن يخرِّب الدين بطريقة ذكية لا تبدو متعمدة..

كان من السهل عندئذ ألا يذكرَ معجزة الميلاد بلا أب، ومعجزات كثيرة منها إحياء الموتى، وهي معجزات لم تؤثِّر في كل المعاصرين لها، ومن السهل إخفاؤها على وثنيين بعد سبعة قرون. ولعل هذا الشخصَ مؤمن بنبوَّة المسيح وغير مؤمن بألوهيته. لكن حتى المؤمن بنبوَّة المسيح فقط لن يسعى إلى اختلاق ديانة، المؤمن بالمسيح لابد أن يكونَ مؤمنًا بالله، ومن يكذب على الله لا يكون مؤمنًا بأي نبي!

هناك أمر آخر، لو عُرضتْ قصة المسيح على شخص من القرن الحالي، على مستوًى عالٍ من الثقافة والذكاء، لكنه ملحد، فإنه سيقول على الفور: يمكن أن أومنَ بحادثة الصلب؛ لأن العقل لا يرفضها، في حين أشكُّ في ميلاد

المسيح بلا أب، وأشكُّ في أنه كان يحيي الموتى! لو افترضنا أننا أخذناه إلى القرن السابع الميلادي، وقلنا له: استخدم عبقريَّتك في صياغة شيء ما عن المسيح. فإن الشيء الوحيدَ الذي لا يمكن أن يصوغَ نصه هو أن يؤكد ما يعارضه العقل البشري (الميلاد من عذراء، وإحياء الموتى)، ثم ينفي في الوقت ذاته ما لا يتعارض مع العقل البشري (صلب المسيح، وأنه مات على الصليب).

اللادينيون أنفسهم لا يثقون تقريبًا في شيء من سيرة المسيح غير حادثة الصلب، بناءً على أنها حادثة وقعت وَسْط جمهور من الناس، وغير غريبة النتائج.

ولو كان المطلوب من هذا العبقريِّ المعاصر الذي أخذناه إلى القرن السابع الميلادي، أن يبديَ بعض الميل إلى المسيحية، فماذا سيدَّعي بخصوص المسيح؟. سوف يثبت الميلاد بلا أب، وسوف يثبت المعجزات، وسوف يثبت الصلب، فقط سينفي الألوهية عن المسيح.

وحتى الألوهيةُ ذاتها، ما المشكلةُ فيها إذا كان هذا الشخص سيدعي النبوة؟ فالنبوة مقام، والألوهية مقام آخر، وعند ذاك سيجد حمايةً ما من الدولة الرومية إذا قال لهم: سأقضي على الوثنية في الجزيرة العربية، وأدعو إلى تأليه

المسيح بين العرب، لقد جاءني الروح القُدُس وطلب مني أن أدعوَ القبائل العربية. كانت قريش ستضطر إلى رفع يدها عنه، إنها نبوة محميَّة، بدلًا من هذا الاضطهاد المتواصل والحصار العنيد. وحمايةُ القيصر أفضل وأضمن من حماية رؤوس القبائل في يثرب (المدينة).

ولمدعي النبوة في هذا العصر -القرن السابع- يكون الالتجاء إلى بيئة مسيحية في شماليِّ الجزيرة العربية هو الحلَّ المثالي، ومع بعض الإنجازات على أرض الواقع، وعلى رأسها القدرة على اكتساب البشر، كان سيعيش في رَغَد وجاه.

والبيئة المسيحية أفضل لسبب آخر؛ ففي يثرب، وحولها تعيش قبائلُ يهودية قوية ومستقرَّة، وبها الكثير من علماء اليهود، إن الذي سيذهب إلى تلك البيئة سيتعرَّض إلى نقاش تاريخي ديني على مستوى عالٍ.. في حين لو ذهب إلى بيئة مسيحية فإن علماءها لن يناقشوه في أخبار بني إسرائيل برغم إيمانهم بالتوراة، سيكون النقاشُ ذا طبيعة لاهوتية، محوره: (هل تؤمن بأن المسيح هو ابن الله؟). نعم. بوركت. وأي خلاف فيما دون تلك الفكرة لن يكونَ أوسع من الخلاف بين الكنائس المختلفة. حتى النقاشُ في سيرة المسيح، أهون من النقاش مع اليهود في نزول آدم من الجنة، واسم الشجرة

التي أكل منها، إلى آخر القصص اليهودي.

إن مجاورة اليهود ستُجبَه بتحدٍّ علمي لا تُجْدي فيه المواهبُ والقدرة على الكلام في العموميات. ولتقريب الصورة، هذا يشبه أن يعيشَ شخص ما في بيئة أمية ويدعيَ أنه حاصلٌ على دكتوراه في الأدب الإنكليزي، ثم يهاجرَ بعد ذلك ليعيشَ بين الإنكليز مدَّعيًا الدعوى نفسها، إن المفترض أن يُفتضَح أمرُه على يد أصغر الطلاب الإنكليز، ولن يحتاجَ الأمر إلى مناقشة مع أساتذة الجامعات. والمفترض أن الشخص العاقل لا يذهب إلى حيثُ يفتضَح أمره أبدًا.

لكنَّ النبي محمدًا ذهب إلى اليهود، وأُلقِيَت عليه أسئلة كثيرة، وأجاب دون أيِّ ارتباك أو محاولة للتودُّد الذي يحاوله الغشاش مع من يخشى أن ينكشفَ أمره على أيديهم. وانتهت مرحلة الكشف عن القدرات تمامًا، ودخلوا في مرحلة الاعتراف بالأمر الواقع، فكان بعضُهم يقول: إنه نبيٌّ للعرب ولسنا مضطرين إلى أن نتركَ كتابنا لنتبعه، وبعض علمائهم آمنوا عن يقين وطمأنينة.





مَن وراء محمَّد؟

شخصٌ ما على دراية كاملة بالتوراة والإنجيل، وعلى مستوًى مذهل في إجادة اللغة العربية، هو الذي أنتج النصَّ لمحمد. لكن أول شيء كان سيفعله رجلٌ بهذه القدرات هو أن يترجمَ التوراة والإنجيل إلى لغة عربية مميزة، والمعلوم أنه لم تكن هناك ترجمةٌ عربية مميزة أو غير مميزة للتوراة والإنجيل في القرن السابع الميلادي.

وفي مجتمع كالمجتمع العربي القديم، كان هناك احتفاءٌ بالفصاحة والقدرات اللغوية والشعر، ورجل كهذا لا بد أن تظهرَ موهبته ويُشتهَر اسمه، ويشتهر أسلوبه المميز، بحيث يصرخ نقادهم -الذين كانوا يلحَظون العيب اللغوي أو البلاغي في شطر من بيت في قصيدة تتكون من أكثر من مئة بيت- هذا الأسلوب القرآني هو أسلوب فلان.

ثم إن عدم توافر ترجمة للكتاب المقدَّس حتى ذلك التاريخ، يوحي بأن منطقةَ وسط الجزيرة العربية، برغم قربها الجغرافي من مَواطن الكتاب المقدس، لم تكن ذاتَ أهمية كبرى في مجال التبشير بالديانة المسيحية، ومن هنا فإن رجلًا على دراية كاملة بالكتاب المقدس، ويريد أن يصنعَ نبيًّا، كان من المنطقي أن يصنعَه في الشام لا في الحجاز.

لعل هذا الشخصَ عربي، وأراد أن يصنع نبيًّا عربيًّا، مستفيدًا من التراث الديني. المفترض أن يكون هذا الشخص نابغةَ عصره، يعرفه العرب للغته الرائعة، ويعرفه علماء اليهود أيضًا لعلمه الديني الغزير.

ومعلوم أن العربَ كانوا يستمعون إلى قصص الأنبياء من اليهود، لكن بلا انفعال ديني، يستمعون كما يحبُّ البشر أن يستمعوا إلى التراث الشعبي. فكانوا يسمعون بلا إيمان بما يسمعون، وبلا تعصُّب في ذات الوقت ضد ما يسمعون. لكنَّ هذا الشخصَ الذي أفترضه يجب أن يكونَ بجانب محمد، يمده بنصوصٍ كل حين. والأرجح أن الوضع سيكون مكشوفًا جدًّا، خصوصًا في ظلِّ الظروف التي كان يعيشها النبي محمد.

وبرغم كثرة العيون المتربِّصة به وبسلوكه، لم تقل العرب إنها كلمات فلان. ولم تقل اليهود إنه عِلم فلان. لم يشكِّك معاصرو محمد أنه تعلم العلمَ وأخذ الدين عن الراهب بَحيرا، الذي قابله لما كان طفلًا صغيرًا. أو عن ورقة بن نوفل، الذي قابله بعد نزول الوحي عليه وذهب ليحكيَ له ما حدث. المعاصرون لمحمد لم يشكُّوا في الشخصين، برغم أنهم كانوا في أمسِّ الحاجة لأي وسيلة للتشهير به واتهامه بأنه تلقَّى العلم على يد هذا أو ذاك.



لكنَّ التهمة ظهرت بعد ذلك بقرون على يد المستشرقين الذين يعتمدون المراجع الإسلامية ذاتها لدراسة شخصية محمد! والغريب أن تكون الكتب الإسلامية، سواء الدينية منها أو التاريخية، هي المعتمَدة مرجعًا للتشكيك! في حين لا يعتمدها المستشرقون أنفسُهم مرجعًا لتأييد فكرة نبوَّة محمد، فلم يقل أي مستشرق يريد أن ينفيَ النبوة عن محمد إنه يشكُّ في صحة قصة الراهب الذي قابله محمد كما في المراجع الإسلامية والتاريخية، في حين يشكُّ بعضهم في كون إسماعيل قد عاش في مكة ودُفن بجوار الكعبة، وأخبار استقراره في مكة تعرفها كل القبائل، وهي مذكورةٌ في كل المراجع بلا استثناء.

أما ما يثيره المستشرقون، ولم يلفت نظرَ أعداء محمد المعاصرين له، فهو أن محمدًا وهو في سنِّ الطفولة -وكان مع عمِّه أبي طالب في رحلة تجارية إلى الشام- تفرَّس الراهب بَحيرا في وجهه، فلمح علامات النبوَّة، وانتهى الأمر على ذلك الحال، ولم يرَه محمد مرة أخرى، ونسيَ العمُّ والتجار القصة، وكذلك محمد.

تلك هي الشبهة الأولى. أما الشبهة الثانية، فهي أنه لما نزل الوحيُ على النبي محمد للمرة الأولى، خاف وذهب هو وزوجته إلى ابن عمِّها العالم بالكتاب المقدس، وهو رجل

ناهز المئة من العمر، وقال ما معناه: هناك نبيٌّ منتظَر في هذه الأمة، والذي نزل عليك كالذي نزل على موسى، بمعنى أن الرجلَ الثاني يؤكد نبوة محمد، بل حدث هذا النقاش بعد نزول الوحي، أي بعد نبوة محمد. والرجل الأول بَحيرا لمح وبشَّر بنبوة محمد قبل ظهورها، والمقابلتان كلتاهما معًا تدلان على نبوة محمد وليس العكس. وإجمالي الوقت الذي قضاه محمد في المقابلتين مع الرجلين، أقلُّ من الوقت اللازم لإجراء مقابلة مع شخص يتقدم لوظيفة مدير تحرير الصفحة الدينية في جريدة محلية!

إن وجود اثنين من علماء المسيحية في القرن السابع الميلادي يؤمنان بنبي قادم، وكذلك رأي حاكم مصر وقيصر الروم في ردِّهما على رسالتَي محمد، حين شهدا أيضًا بنبي قادم كانا يتوقَّعانه من الشام، يُفترَض أن يثيرَ انتباه المعاصرين، أجل اثنان من العلماء، واثنان من الحكام، وأربعتهم مسيحيون غير منشقِّين ولا مهرطقين، يؤمنون جميعًا بأن هناك نبيًّا دنا وقته (في زمانهم). كيف كانت هذه الفكرة راسخة حينها، وهي الآن غير موجودة؟! المفترَض أن قرب عصرهم من عصر المسيح يعطي لأفكارهم حجِّية على أفكارنا نحن بعد ألفَي عام من ميلاد المسيح. على الأقل أتوقَّع ألا يمثل الحكام أنفسهم قطاعات مسيحية شاذَّة في



التفكير والتنبؤ. وإنه لَمِمَّا يُثير العجب أن يفحصَ المسيحيون هذا الملفَّ، ويحاولوا استخدامه للتشكيك في نبوَّة محمد، مع أنهم لو اعترفوا بتلك اللقاءات وما دار فيها، على الوجه الصحيح، لتغيَّر الأمر تمامًا.





التعليم

ألا يمكن أن يكون محمد هو الذي أنتج القرآن بنفسه، وقد اكتسب علمًا دينيًّا وطاقة روحية متميزة؟!

تعالَوا نناقش هذه الفرضية: من السهل على إنسان عصريٍّ أن يقوم بتعليم نفسه بنفسه بشيء من الصبر والإرادة والذكاء، وذلك بلا معلمين من البشر. يدخل الشابكة (الإنترنت)، ويتصيَّد برامج ومواضيع عن اللغات الشرقية أو الأديان مثلًا. بعد بضع سنوات متواصلة من الدأب وبذل الهمَّة سيكون قد تعلم فعلًا، وبلغ مرتبة تسمح له أن يقول: أنا أعلم ما لا يعلمه مَن حولي مِن غير المتخصِّصين فيما درست.

في عصر محمد كان الأمر مختلفًا، ولم يكن بهذه السهولة، وبخاصة في الجزيرة العربية، كان التعلُّم يعني تنقلًا شاقًّا واحتكاكًا مباشرًا بالمعلم، هذا غيرُ حالنا في العصر الحديث حيث يأتي إلينا المعلمون في قاعات الدرس.

لنفترض أن محمدًا قرر أن يصنعَ دينًا جديدًا، وأن تكون الأفكار والنصوص مترابطةً محكمة يصعب نقدها، ويستمر الدين بعده مئات السنين، فخطَّط لما يأتي ونفَّذه: ذهب إلى شخص ما في منطقة أخرى ليعلِّمَه القراءة والكتابة، ثم طاف



على علماء اللغة العربية في أنحاء الجزيرة، وعلى الحكماء والشعراء والخطباء، حتى أتقنَ أسرار اللغة، ثم تفرَّغ لصناعة أسلوب جديد بليغ، ثم مر بالكهَّان والعرافين وتعلم طرقَ التحدث عن الغيبيات، ثم جمع أخبار الأمم التي كانت تعيش في الجزيرة العربية وأخبار أنبيائها، وهي أمم لم تُذكر في التوراة، وأجهده ذلك كثيرًا لقلَّة المعلومات، لكنه حصل على مخطوطاتٍ وآثار نادرة لهذه الأمم، ثم ذهب إلى الصابئة فتعلَّم اللغة النَّبَطية، ودرس دينهم، ثم تعلم العبرية والآرامية، ودرس كتب اليهود كلَّها على أيدي بعض علمائهم، ثم درس الإنجيل والديانة المسيحية بكل فرقها، ومنها النسطورية واليعقوبية، ومعتقد آريوس الموحد. ثم صفَّى أفكاره وهذَّبها، واكتسب مهارات روحية خاصة على أيدي شيوخ من فارسَ والهند. ثم بدأ بعد كلِّ ذلك ينتج نصوصه في ضوء العلم والطاقة الروحية التي اكتسبها.

هذا ما يجعل متنبئًا ما مقنعًا إلى حدٍّ ما، في أمة لم تعتَدْ رؤية الأنبياء، وقد كانت تَعجب لدعوة محمد، ويقول أبناؤها: كيف يبعث الله بشرًا رسولًا؟!. من وجهة نظرهم يتوقَّعون أن تكون الملائكة رسلًا من الله.

والسؤال الآن: ألن يحتاجَ شخص ذكي جدًّا، ونشيط جدًّا، ومحظوظ جدًّا، ما لا يقل عن خمس عشرة سنة

ليصنعَ هذه الفكرة الدينية المحكمة، بعد أن يتتلمذ على أيدي الآخرين؟ وهذا زمن قليل جدًّا إذا ما عرفنا أنه سيقضي ثلث الوقت في التنقُّل بين المدن، وإذا ما عرفنا أن ترجمةَ كتاب دين قد تستغرق أكثر من ستِّ سنوات!

وتلك بيئة علمية لن تشبه البيئةَ العلمية الحديثة، البيئةُ القديمة هي عيش مشترك. فعندما ينتج قرآنه ويدعي النبوة، ألن يفضحَه معلموه على كثرتهم؟ ويقولوا: لقد علَّمناه.

ألن يفضحَه من شاهدوه يتردَّد على المعلمين؟ وهم بالطبع أكثر من عدد المعلمين. ولماذا لم يختفِ عن أهله خمس عشرة سنة، أو حتى سنة واحدة في هذه البعثة الدراسية المتخيَّلة؟.

والسؤال الملحُّ ما زال ملحًّا: وماذا عن الصمود واليقين والنبوءات، والقدرة على تحقيق ما بدا إعجازًا اجتماعيًّا وثقافيًّا ودينيًّا وسياسيًّا إذا جاز التعبير؟.

إن محمدًا ذكر في القرآن قومَ عاد وثمود، وهم غيرُ مذكورين في التوراة، ولم يكن هناك معلومات موثوقٌ بها عن القبيلتين إلا القليل الذي انتقل من الأجداد من قبْل عصر إبراهيم، على صورة شعر وعظات. وقد شكَّك المستشرقون في وجودهما، ثم اتَّضح بعد ذلك أنهما مذكورتان في تاريخ

بطليموس! هل من المعقول أن يكتبَ محمد عنهما بلا دلائل مادية؟ أم أنه اطَّلع على تاريخ بطليموس؟!.

إن تلقي العلم، حتى العلم الديني، لا يعني التشكيك في رسالة أيِّ رسول!

فعيسى كان يحضر دروسًا دينية، وهناك من الملاحدة من يعتقد أن موسى وعيسى قد تلقَّيا تعليمًا فلسفيًّا ودينيًّا في مصر، وعيسى كما ورد في التلمود تعلم السحرَ بمصر، وهذا كل ما في الأمر!

ويستخدم بعض المسيحيين المنطق ذاتَه الذي يستخدمه الملاحدة ضد موسى وعيسى، لكن ضد محمد، وهذا المنطق هو (ابحث عن المعلم)، لكنَّ إثبات وجود معلم بشري في حياة محمد، صعبٌ جدًّا على الباحث النـزيه، ومع هذا فالكلام غير مقنع؛ لأن التعليم لا يصنع المعجزات التي تجري على أيدي الأنبياء، والتعليم لا يمنح المتعلمين هذه القدرةَ على التضحية والعطاء التي تميَّز بها الأنبياء. التعليم يصنع واعظًا جذابًا في التلفاز، كما هو حادث الآن، لكنَّ النبوة تختلف تمامًا، والجماهير لم تكن غبيةً في الماضي، بل كان الناس لا يملُّون طلب المعجزات والدلائل.

فإذا كان محمد أميًّا، فهذه دلالة على الصدق، وإبعاد له عن الشبهات. وتطبيق منطق (ابحث عن المعلم) على محمد، سيكون دلالة على الصدق؛ لأن الرجل الأميَّ لن يفكرَ في القفز هذه القفزة الواسعة، مثلما قد يفكر فيها رجل عالم.

فإذا سلَّمنا أن محمدًا أميٌّ، على أساس أنه لا معنى لإنكاره التعلم إلا إذا تخيَّلنا أنه كان يفكر في أمر النبوَّة منذ الصِّبا، ثم اتخذ الأميةَ دليلًا على الإعجاز، وهذا بعيد جدًّا. وسنسلم بأنه لا يضير النبيَّ أن يكون متعلمًا، فإن الأمر بالفعل يبدو لافتًا للانتباه؛ لأن الطموح الشخصي الذي يجعل الرجال تسعى إلى تحسين وضعها في مجتمعاتها، سينصبُّ كله على التعلم، وبخاصة إذا لم يكن الشخص الطموح ثريًّا، ولا يعيش وسط أبوَين وعدد كبير من الإخوة، فلو كان محمد يرغب في تلميع الذات، لكان التعلم أولَ فكرة سترِدُ على عقله.

وعلى فرض أنه لم يكن هناك أنبياء أميُّون، فلنقرأ هذه البِشارة في (سِفْر إشعيا): «إذا تعطيه إلى شخص لا يستطيع القراءة وتطلب إليه أن يقرأه عليك، سيجيب بأنه لا يعرف كيف».

وهذا ما حدث مع النبي محمد عندما نزل عليه جبريل بالوحي أول مرة، يقول النبي محمد: «أتاني جبريل بنمط من ديباج فيه كتاب وقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ».

وعلى لسان موسى في (التثنية): «قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا. أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه».

ومعنى (أجعل كلامي في فمه): أنه لن يؤتيه كتابًا مقروءًا، بمعنى أنه أميٌّ سيكون الكلام على فمه. ومعنى (وسط إخوتهم) يريد به أن إسحق أخو إسماعيل. ولو كان يتكلم على نبي إسرائيلي لقال: نبيًّا من وسطهم، بل لقال: نبيًّا مثلك.

وكلمة (الإخوة) استُخدمت في التوراة للدلالة على أبناء عيسو: «أنتم مارُّون بنجم إخوتكم بني عيسو..».

إذًا إخوة بني إسرائيل لا تُستخدم للدلالة على بني إسرائيل، بل على أبناء عيسو، أو أبناء إسماعيل. ولم يظهر نبيٌّ أميٌّ، أو نبيٌّ عمومًا في أبناء عيسو. وهذا يعني أن محمدًا مبشَّر به نبيًّا أميًّا في التوراة.

ومن المؤكَّد أن الشهيرَ لا تخفى له سقطة، فأي طالب نابهٍ يتذكر أساتذتُه مستواه الدراسيَّ، ودرجاته في

الرياضيات، ويتذكر له عارفوه في شبابه أي هفوة ظهرت منه، حتى لو أنه ادَّعى خلاف ما يعرفونه عنه، لافتُضح أمره، وظهر كذبه، ولو بعد حين. فما بالنا بمحمد الموصوف في القرآن صراحةً بالأمِّية، ولو قضى عشرة أعوام في التعلم المكثَّف كما افترضتُ، بل لو تعلم مبادئ القراءة والكتابة فقط، لما رحمه التاريخ؛ لأنه سيكون قد خالف نصًّا واضحًا وصريحًا، وبناءً على هذا لا أظن أن محمدًا قد تلقَّى تعليمًا البتة. وعليه فالبِشارتان التوراتيتان تخصَّانه؛ لأنه لم يدَّعِ النبوة أي أميٍّ غير محمد.





الفرضية (فاوست)

فاوست من أبرز الشخصيات في الأدب الغربي، ظهرت تلك الشخصية في كثير من الأعمال الغربية، وهو شخصٌ أبرم اتفاقًا مع الشيطان، على أن يمنحَه قدرات خارقة، شرط أن يطيعه طاعة تامَّة عمياء، وفعلًا نجح الاتفاق، إلا أنه في آخر الأمر شعر بالندم، ثم مات شرَّ ميتة.

يستبعد بعض الناس أن يكونَ محمد قد صنع نفسه، أو صنعه إنسان آخر، ويرجِّحون فرضية فاوست في أمر محمد.

فهو عندهم شخصٌ باع روحه للشيطان! لذا استطاع أن يحقِّقَ الكثير من الإنجازات. هذه النظرية حديثة نسبيًّا، كحداثة شخصية فاوست التي ظهرت في القرن السادس عشر. وتتميَّز هذه النظرية من النظريات الأخرى، في أنها تقدم تفسيرًا لقدرة محمد على إقناع شعب الجزيرة العربية كلِّه، وتفسيرًا لصدق تنبؤات محمد التي لم تخِب منها واحدة، وتفسيرًا للنهضة الإسلامية التي اجتاحَت كامل فارس ونصف الإمبراطورية البيزنطية في زمن قياسي.

ميزة هذه النظرية أنها غيرُ علمية، فهي لا تحتاج إلى أدلة تاريخية أو أدلة من علم النفس، ومن ثَم فإن بيانَ عيوبها سوف يستند إلى وسائلَ غير علمية أيضًا، وهذا شاقٌّ على

العلميين، لكن سأفكر في الأمر بالمنطق.

لا يُعَدُّ محمد في حياته قبل البعثة هدفًا مثاليًّا للشيطان، أعتقد -بلا استناد إلى علم النفس أو التاريخ- أن الشخص الذي سيختاره الشيطان دون الملايين ليجعلَه القائد الذي يُضلُّ أكبر عدد ممكن من البشر، لا بد أن يكونَ أحد نماذج ثلاثة، ومن المستحسن أن يكونَ خليطًا منها كلها:

١- نموذجٌ غارق في الوَحَل والملذَّات المحرمة، داعر، كذاب، غادر، شهواني، أناني.

٢- نموذجٌ مكتئب، حانق على الناس والمجتمع، يفتقد السلامَ النفسي والعلاقات الطيبة، ويشعر بجفاء الناس.

٣- نموذجٌ فيلسوف متكلِّم، صاحب نبوغ عقليٍّ، مغرور، يبحث عن شطحة فكرية وقدرة على استقطاب الناس.

والمفترض بتلك الصفات أن تكونَ متأصِّلة تأصُّلًا ملحوظًا، بمعنى أن (مكتئب جدًّا) لا تعني مجرد إنسان حزين، و(فيلسوف نابغة) لا تعني مجرد شخص ذكي.

أما النموذج الأول (المنحل أخلاقيًّا) فمُفتَقَد في محمد، فهو الصادق الأمين كما لقبته قبيلته، ولم يذكروا له سقطة

دينية أو أخلاقية أو سقطة مروءة قبل البعثة يعيَّر بها بعد البعثة. فهو لم يسجد لصنم، ولم يحلف باسم صنم، ولم يزنِ، ولم يكذب، ولم يغدر، ولم يتكلم ببذيء الكلام، ولم يردَّ محتاجًا، ولم يتأخر عن مساعدة من تعرَّض لمصيبة.

وأما النموذج الثاني (المكتئب الممزق نفسيًا) فنجد أن حياةَ محمد قبل البعثة ليست مرفهة، لكنه لم يتعرض لشقاء ملحوظ في مستوى الحياة، ولم تكن عنده مشكلةٌ مع تكوينه، فهو وسيم، معتدل الجسد، وافر الصحة، يتمتع بدرجة عالية من القَبول جعلته محطَّ احترام القبيلة والطبقة الأرستقراطية؛ بسبب أخلاقه وابتعاده عن العبث. ويتمتع بصداقة نخبة من الشخصيات المحترمة، ومنها أبو بكر صاحب المكانة المميزة. وهو من بيت مرموق في القبيلة، وقد أُعجبت به دون كلِّ السادة وأثرياء القبيلة خديجةُ بنت خويلد المرأة العاقلة الثرية، واختارته زوجًا لها. وقد كان لديه من السلام النفسي وسعة الصدر ما يجعله يتمتع روحانيًا بالتأمُّل في مَلَكوت الله في ليل مكة، وذلك بالانفراد للتأمُّل. فمن أين تأتي الكآبة والسخط؟.

وأما النموذج الثالث والأخير (الفيلسوف) فنلحظ أن تلك البيئةَ لم تكن بيئةَ فلاسفة أصلًا، كان الإنتاج العقليُّ فيها ينحصر في الحكمة والشعر والخطابة، ومحمد لم يكن

له إنتاج مذكور في هذه المجالات، حتى الكلام في الألوهية الذي تكلم به عربٌ قبل بعثته، لم يكن إلا كلامًا محدودًا أبعدَ ما يكون عن المنهج المتكامل، ولم تكن أفكار محمد عن الله قبل البعثة إلا المنطقَ الاستدلاليَّ العربي البريء وهو: (البعرة تدلُّ على البعير، والصنعة تدلُّ على الصانع).

إذن النماذج الثلاثة لا تتطابق مع محمد.

ولعل من الأجدى أن نتعرَّفه من آثاره: قضى على عبادة الأوثان، ودعا إلى التوحيد، ودعا إلى برِّ الوالدين، ودعا إلى الصدق والأمانة والعفاف، وقضى على ثارات القبائل، ودعا إلى حسن الجوار، وصلة الرحم، وحرَّم قول الزور، وحرَّم أكل مال اليتيم، وجعل للفقراء نصيبًا من مال الأغنياء، وساوى بين الناس فلا سادة ولا عبيد.

ودعا إلى أخلاق جديدة على عصره: في مجال العمل العسكري، وفي معاملة الأسرى، وبيَّن للبشرية أن الإنسان قد يدخل النارَ بسبب إساءته إلى حَيَوان، أو يدخل الجنة بسبب إنقاذه حَيَوانًا. وكانت آخر وصية له قبيل الموت تحث على حسن معاملة النساء.

أهذه خُطة الشيطان التي دفعها إلى محمد ليجاهدَ في سبيل تحقيقها جهادًا مريرًا؟!.

هذه الخطة التي منذ تسلَّمها انتهى عنده عهد النوم أو الراحة؛ لشعوره بعِظَم الأمانة والمسؤولية الملقاة على عاتقه!.

لا يعرف الشيطان العفوَ والمغفرة، ومن المؤكد أن مبادئه كذلك، ولكننا نجد محمدًا قد غفر للرجل الذي قتل عمَّه ومثَّل بجثَّته بطريقة وحشية. وغفر لتلكم المرأة المحرِّضة التي لاكت كَبِدَ عمه القتيل!. وما ذاك إلا لأنهما آمنا بالله، فاستحقَّا الأمان. الإيمان بالله هو مفتاح شخصيته، ويتغاضى عن مشاعره الشخصية، وعن أيِّ شيءٍ، إذا تَرك الشخص الذي أمامه عبادة الأصنام لعبادة الله وحدَه.

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم): هذه هي الكلماتُ التي يقولها المسلمون منذ عهد محمد حتى الآن، عندما يشرعون في قراءة القرآن، ومن السخف أن نقولَ إن الشيطان أوصاه بهذه الكلمات على سبيل التمويه!.

وهناك آيات مؤثرة في القرآن تحذِّر من كيد الشيطان لبني آدم، إن الشيطان يُستعاذ منه ويُلعن مئات ملايين المرات يوميًّا على ألسنة المسلمين وحدَهم. أنا لا أستطيع أن أتخيَّل أن الشيطان كان يقف سعيدًا على قمَّة جبل صخري في مكة،



في حين يحطم محمد الأصنام التي كانت حوالَي الكعبة، لا أتخيَّل الشيطان كان يقف كمهندسِ موقعٍ يشرف على تنفيذ عملية الهدم هذه!





الصاحب

كان أول الوحي قد نزل على النبيِّ محمد وأقربُ أصحابه إليه وهو (أبو بكر) في رحلة تجارية إلى الشام، وعندما رجع أبو بكر وعلم أن الله بعث صاحبه محمدًا نبيًّا، سارع إلى التصديق دون تلكُّؤ ولا تردُّد.

أنا أبحث فيما لا يبحث فيه المسلمون؛ لأنهم ليسوا بحاجة إلى البحث عن التِّبْر في قلب الصخور، مواقف عادية هي المفضَّلة للتحليل، أي رجل هذا الذي إذا سمع عنه إنسانٌ أنه يدَّعي النبوة، سارع إلى التصديق والتسليم دون أن يستفسر منه أو يناقشه في الأمر؟!.

لابد أن محمدًا خامة إنسانية غير عادية، في صدقه وأمانته واستقامة سيرته.

ولكن قد يعترض معترضٌ بقوله: لعل أبا بكر من هؤلاء الذين لديهم استعداد فطريٌّ للانبهار بالشخصيات المميزة.

ونقول: لا، أبو بكر كان تاجرًا ثريًّا، وشخصية بارزةً في القبيلة، وهو معروفٌ في الجزيرة العربية وبين قبائلها، إلى الدرجة التي تمكننا من أن نسمِّيَه بالمصطلح العصري (شخصية عامة)، في حين لم يكن محمدٌ معروفًا إلا في



حدود قبيلته. وكان أبو بكر مسؤولًا عن الدِّيات في القبيلة، أي أنه صاحب منصب.

لعله كان سيستفيد من وضع صاحبه غير المشهور عندما يعترف به نبيًّا، لكن ما استفادته؟ إنه تاجر ثريٌّ ورجل بارزٌ ومسؤول ذو مكانة، ولو اتَّبع دعوةَ صاحبه لفقد كلَّ شيء، وهذا ما كان فقد تعرَّض الرجل المَهيب للضرب والإيذاء حتى كاد يموت، والمفترض أنه لن يغامرَ إذا ما كان لديه أدنى شك، ولكنه بادر إلى التصديق والإيمان وسارع إليهما عن يقين تامٍّ وطمأنينة وثقة بصدق محمد.

الأصحاب المقربون يعرفون الخبايا النفسية لأصحابهم، وقد نحبُّ شخصًا ما حبًّا جمًّا، لكنَّ هذا لن يمنعنا من رؤية عيوبه. وإذا كنا نحبُّه إلى الدرجة التي تجعلنا لا نرغب في أن نرى تلك العيوب، فإن الظروفَ والتحديات تجبرنا على رؤيتها. أن أحبَّ شخصًا ما لا يعني بالضرورة أن أراه (جنرالًا)؛ لأنه يريد أن يكونَ (جنرالًا)! ولو أصرَّ فسأعارضه أو لا أعارضه، لكن لن أكونَ جنديًّا خلفَه. وإذا ما قال إنه نبي، فالأمر أخطَرُ، وإذا ما صدَّقتُه قبل أن أناقشه وأنا في مكانة ومنزلة (أبي بكر)، فهذا سيكون بلا ريب مثالًا غير عادي على ثقة إنسان بإنسان، ومعناه أنه عَرفَ فيه من الأخلاق ما لا يتعارض مع ادِّعاء النبوة، وعلم من صدق



حديثه خلال عِشرةٍ طويلة أنه الرجل الذي يأبى أن يكذبَ على إنسان، فهيهات أن يكذب على الله.

مع علمي أن الصاحب يرى من سقطات الصاحب -بسبب العلاقة الحميمة الخالية من التكلُّف- ما لا يراه الجيرانُ ولا تراه الزوجة.

وقد مرَّ هذا الصاحب مع محمد بتجاربَ خطيرة جدًّا، بدءًا من إيمانه وحتى آخر يوم في حياة محمد. فقد أنفق تقريبًا كلَّ ماله في سبيل الدعوة، وفي تحرير الرقيق. وموقفه في أثناء الهجرة مع النبيِّ من مكة إلى المدينة موقفٌ مشهود، الهجرة التي قابلتهما فيها مواقفُ بدا فيها أن أبا بكر يفضِّل الموتَ على أن يُجرحَ النبيُّ بشوكة! إنه حقًّا لسلوك عجيب يستعصي فهمه إلا إن فُهِمَ على أن أبا بكر كان في حالة إيمان غامر، إلى درجة أن عقربًا لدغته فتجلَّد وكتم أنفاسَه خشية أن يوقظَ النبي! وشارك النبيَّ في هذه الرحلة التي غيرت وجه التاريخ. لقد خرجا من بين السيوف التي شهرها الوثنيون لقتل محمد، ومرَّا بصعاب كثيرة حتى وصلا إلى المدينة بعد أحد عشر يومًا، فكيف يجب أن يُستقبل هذان؟.

خرج أهل المدينة لاستقبالهما فرحين بخروج النبيِّ من بين الكفار المتآمرين سالمًا، في رحلة شاقة. وهذه كلمات

التوراة التي لا شكَّ أنها تخص استقبال محمد وصاحبه، بعد هذه الرحلة التي غيرت التاريخ: «هاتوا ماءً لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا القادمين بخبزة، فإنهم من أمام السيوف قد قَدِموا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب».

لسوء حظ المشككين أن تيماء تحتفظ بهذا الاسم منذ ما قبل التوراة حتى الآن، فهي في شمال المدينة، وهي من أقدم المدن في المنطقة الواسعة التي تنتمي إليها المدينة. ومن المعقول أن يسمَّى إقليم باسم أقدم حاضرة فيه. وتيماء كانت لها علاقاتٌ مع حضارات بلاد الرافدين، واسمها واردٌ في نص آشوري يرجع إلى عصر الملك تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق.م)، ثم ذكرت مرة أخرى في نص آشوري يرجع إلى عهد الملك سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م). أما المصادر البابلية فقد ورد ذكر تيماء في عدة نصوص فيها تعود إلى الملك نابونيد. وقد كانت من المدن التي لجأ إليها اليهود بعد عصر بختنصَّر.

وتيماء الآن محافظة سعودية، والوصف في كلمات الكتاب المقدَّس لا ينطبق على مهاجر إلى هذه المنطقة إلا محمد، كما أنه لا توجد تيماء أخرى.







اليقين

أبحث في المواقف العادية من سيرة محمد؛ لأحلِّل ردودَ أفعاله وأقيسها على ردِّ الفعل البشري العادي. هذا المنهج من المناهج التي اخترتُها لنفسي، وأعلم جيدًا أن المسلمين لا يستخدمونها، ليس تقصيرًا، لكن لأني أحلِّل بالشك حتى أصلَ إلى اليقين.

مثلًا: لو كان هناك شخص قد ابتدع نظريةً فلسفية قلبت الأوضاع، واتبعه بعضُ الناس، لكنَّ شخصًا ما محببًا إليه، ويبسط عليه حمايته، ولا يسمح لأحد أن يتجاوزَ حدوده معه، وهو مَن رباه ورعاه في طفولته وشبابه، لو كان هذا الشخص مُعرضًا عن الإيمان بتلك النظرية، أما كان سيشعر بنقمة تجاهه؟ لا أظن، فالرجل حرٌّ في قناعاته، حتى لو أصرَّ إلى آخر يوم في حياة الرجل على أن يجعلَه يؤمن بنظريته؛ لأنه يعتقد أنها صحيحةٌ ويجب الاقتناع بها.

هذا في نظرية أرضية، فكيف ستكون الحال إذا ما كان يدعو إلى دين جديد، يزعم أنه موحًى إليه من الله رب العالمين؟. لا شك سيُلِح إلحاحًا؛ لأنه على يقين من صحة دعوته، وهو خائف على هذا الرجل -صاحب الفضل عليه- من الجحيم.

هذا الشخص هو عمُّ النبي محمد (أبو طالب) الذي رباه وحماه، ومنع عنه أذى الكفار، ولو كان محمد متبعًا دعوة غيره لكان معذورًا، لكنه هو نفسُه صاحب الدعوة، وهو نفسه الموحى إليه بحسب زعمه، ولو كان يدعو إلى نظرية فلسفية لكان معذورًا، فيقين الفلسفة غير يقين النبوة. بمعنى أنه عندما يقول: أنا صاحب نظرية فلسفية صحيحة، فقد يكون محقًّا أو قد يكون على خطأ. لكن محمدًا كان صاحبَ دعوة دينية، ومعنى هذا أنه هو شخصيًّا يدرك عن نفسه أنه إما أن يكونَ صادقًا أو يكون كاذبًا، ولا يوجد احتمال ثالثٌ إلا مرض الذِّهان، وهذا غير وارد في تحليل عقل محمد المتَّفَق على ذكائه.

كان العم يُحتضَر، وحوله اثنان من كبار القبيلة الرافضين دعوة الإسلام، ودخل محمد ليقولَ له بإلحاح المحب: «أي عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله». في حين انتصب الرجلان يحرِّضان أبا طالب على الثبات على دين آبائه! وأطاعهما المحتضَر وثبت على دين قومه. فقال محمد: «لأستغفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك...»، ومات عمُّ النبي. والسؤال هنا هو: لو كان محمد كاذبًا، ففيمَ سيستثمر إسلام الرجل في اللحظات الأخيرة من عمره، بهذا الإلحاح العاطفي؟ والعمُّ في الثمانين من عمره، وكان من أحبِّ الناس إليه!

جلال الموت يمنعنا من أن نتلاعبَ بالناس، وأي ناس؟ أقرب الناس إلينا، لكنَّ هذا ليس كل شيء، فمحمد هو الذي ألحَّ على عمه، والرجل مات على دين القبيلة. أخذ محمد يستغفر له حتى نزلت الآية القرآنية التي تقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]. هل تبدو هذه الكلماتُ من إنتاج محمد؟ ألا تتعارضُ تمامًا مع عاطفته الشخصية تجاه عمه الذي منع عنه الكثيرَ من الأذى؟.

ولو قيل: إن محمدًا كان يَعُدُّ إيمانَ عمه مكسبًا لدينه. فهل الاستغفار يمثل مكسبًا للدين؟ وهل النهي عن الاستغفار يمثل مكسبًا شخصيًّا لمحمد؟.

ولو كان محمد ناقمًا على موقف عمِّه لما استغفر له، ولصنع آيةً تفيد كفرَ العم، ولا تهتم بالنهي عن الاستغفار للكفار.

وإليك أحد المواقف التي تؤكد يقينَ محمد، وهو يُظهر ردَّ فعل غير بشري. لو كان لدى أيِّ إنسان طاقة وموهبة متميزة، لكنَّ الظروف لا تسمح له بإظهار تلك الموهبة، وخرج في حياته فردٌ أو مؤسسة تمتلك الإمكانات التي تُبرز موهبته للتعبير عن نفسها، وعُرضت عليه تلك الإمكانات،

لكنَّ العرض كان احتكاريًّا. إن الإنسان غالبًا ما يُضطَر في ظروف ما إلى قَبول عروض كهذه، وبعد أن يقطعَ شوطًا في طريق النجاح، قد يتبرَّم بشروط العقد أو يعتادها. لكن هناك فئةً من البشر تتصف بحساسية عالية وثقة بالنفس، مهما كانت الظروفُ التي تحيط بها فإنها ترفض أيَّ عرض ترى فيه شيئًا من الاستغلال.

في مرحلة الاستضعاف التي كانت فيها دعوةُ محمد محاصرة، وتتعرض لتضييق من قبيلته، وكانت الدعوة بحاجة إلى الخروج من هذه الشرنقة الضيقة، ذهب محمد إلى قبيلة (عامر) ودعاهم إلى الله. كان يخرج في جولات كهذه وكله رجاءٌ أن يجدَ قبيلة تؤمن به. رجل من كبار هذه القبيلة لمس تميُّزَ محمد وقدرته على التأثير، قال لمن حوله: والله لو أني أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب. ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمرُ من بعدك؟.

فقال له النبي: الأمرُ إلى الله، يضعه حيثُ يشاء. فقال: أفنُهدِف نحورَنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمرُ لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك!

كان يمكن لمحمد أن يلاين الرجلَ ليكسب تأييده

ونصرته، ولكنه أبى أن يعدَه وعدًا غير صادق أو أن يمنِّيه بالأماني الكاذبة، لأنه رجلٌ صاحبُ مبدأ، ومعتزٌّ بنفسه. فهل النبي الكذاب إنسان مبدئي، معتزٌّ بنفسه؟!.

السنوات الأولى للدعوة لا يطيق احتمالها بشر، والعَرض نفسه كان عرضًا سياسيًّا جيدًا. ورفْضُ هذا العرض ليس رفضًا سياسيًّا كما هو واضح، ولا أعتقد أن هذا الردَّ فعل بشريٌّ عادي. ولو قيل: إنه لم يعط الرجلَ العهد بأن يكون لهم الأمرُ من بعده، لئلا تخرجَ القيادة من قبيلة قريش، لكان من الأَوْلى أن يجعلَ مكة هي عاصمة دولته وليست المدينة بعد أن فتح مكة. وهل في هذه الظروف الصعبة ينشغل بتأمين الزعامات التي تليه في حين الدعوة تشقُّ طريقها في أوعر السبل؟!.

من المؤكد أن الأشخاص الموقنين يبدو يقينهم على ملامحهم، وقد يكون الإنسان موقنًا بِوَهْم، لكن هذا الوهم الموقَنَ به يضيف لمسة على الملامح ظاهرة، وفي ادِّعاء النبوة لا مجالَ للوهم إلا في حالة المرض العقلي. ويستطيع الناس الذين لديهم خبرةٌ حياتية عميقة، أن يحدِّدوا أيَّ نوع من الناس يقف أمامهم، هذا قبل بروز المدارس الحديثة في علم النفس.

مثال: حاكم حَلَمَ حُلُمًا، واستغرب الحُلُمَ جدًّا، ولم يجد أحدًا يفسِّره له من رجاله. وبعد حين فسَّره له أحد الصالحين، فخرج هذا الرجل الصالح من السجن بعد التفسير. فسَّره تفسيرًا منطقيًّا مقنعًا، لكنَّ التحقق من صحَّة التأويل يتطلب انتظار خمسة عشر عامًا، والتأويل مرتبط بمصلحة البلد العليا.

ما القرار الذي يمكن اتخاذه حيال هذا الرجل الصالح؟.

لعلك تقرِّر التحفظ عليه، حتى تتيقَّن صحَّة تأويله، حينذاك ستكرمه وتحسن معاملته كما ينبغي. إذًا أنت بخستَ النبيَّ يوسف حقه، وأجَّلت تكريمه خمسة عشر عامًا! أجل فقد فسَّر الحُلُمَ لحاكم مصر بما يأتي: ستمر بالبلد سبع سنوات رخاء، تليها سبع سنوات شدَّة، ثم يأتي عام يُغاث الناس فيه، والحصيلة خمسة عشر عامًا. ولكن الحاكم المصري كافأه وأكرمه وقرَّبه إليه بعد التفسير مباشرة، فهل كان أبلهَ؟!.

يرفع رجلًا عبريًّا كان مسجونًا في دولته، ويجعله وزيرًا كبيرًا متخطيًا الجهاز البيروقراطيَّ للدولة، مع ما هو معلوم من أن ملوك مصر حينها كانوا لا يقرِّبون الغرباء، ويوسف كان رجلًا مسترَقًّا!.

لا، لم يكن الحاكم أبلهَ، لقد طبق كلَّ ما كان متاحًا قبل اختراع أجهزة كشف الكذب:

- درس صدق لهجته، وأمعن التأمل في كل كلمة من كلمات تأويل الحُلُم.

- سأل عن الرجل، فشهد كلُّ من عرفه بصلاحه، وفي مقدمتهم سجَّانوه.

- من المؤكد أنه أنعم النظرَ في وجه الرجل، ولم يرَ فيه وجه كذَّاب.

ولكن ما علاقة هذا بالنبيِّ محمد؟.

لقد جاء النبي محمد بعد عصر يوسف، ولم تكن أجهزة كشف الكذب قد اختُرعت بعد، لكن دعوته امتازت بمزايا واضحة كالشمس:

- دعوة متماسكة متينة السبك، محكمة دقيقة، لا تعارض فيها ولا اختلاف، وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

- حتى أعداؤه كانوا يشهدون له بالصدق والأمانة وعدم الغدر، فسادةُ العرب كانوا يستحيون أن ينالوا من عدوِّهم بالكذب، ورميهم بتُهَم باطلة؛ لذا لما استدعى قيصر الروم

سيِّدًا من سادة قريش وهو أبو سفيان، وكان معه ناسٌ من قبيلته، وسأله قيصر أسئلة كثيرة عن محمد وما يدعو إليه، وهل عهدوا منه الكذب أو الغدر؟ كان جواب أبي سفيان نفي ذلك، برغم أنه كان من ألدِّ أعداء الإسلام.

- انفعالات الوجه والنبرة كلها ليست لكذاب.

فعبد الله بن سلام حبرُ اليهود في المدينة، عندما رأى محمدًا أول مرة قال عن ذلك: فلما رأيته، عرفت أن وجهه ليس وجهَ كذاب. ومع ذلك سأله ثلاثة أسئلة دينية أجاب عنها النبيُّ محمد، فأسلم ابن سلام من فوره عن يقين وطمأنينة.

من المؤكد أن وجوه الأنبياء تتبدَّى علامات الصدق واليقين فيها على نحوٍ مغايرٍ لتبدِّيها في وجوه البشر العاديين، وخطورة دعوى النبوة تجعل الناس يتفحَّصون جيدًا، برغم دلائل الوجه.





الصدق

لا يُعجَب بعض الناس - من غير المسلمين - بالطريقة التي يصف بها محمد لقاءه الأول بجبريل، فقد رجع محمد إلى زوجته وطلب تغطيته، وكان يشعر بشدة الخوف، هم يرون أن الأنبياء لا بد أن تلتقي بمَلَك الرب في جو ودِّي..

لكني أرى أن القلقَ الذي يشعر به نبي في البدايات، هو قلقٌ طبيعي، وبعد ذلك يألف الموضوع ويتأقلم مع وضعه الجديد.

ماذا يقول (أرميا) في البدايات؟

«آه يا سيدي الرب، إني لا أعرف أن أتكلم لأني ولد».

ما أجملَ الصدق!.

وماذا يقول موسى في البدايات؟

بحسب التوراة: «استمع أيها السيد الرب، لست أنا صاحبَ كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا حين كلمتَ عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان»، «أرسل بيد من ترسل»! لقد شَعَر موسى بأنه غير ملائم للمهمة. لكن القرآن عبَّر عن البدايات لدى موسى بطريقة يسودها التهذيب: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

فإذا وَصفَ محمد اللقاء الأول بأنه سبَّب له الخوف، فهذا يشعرني بالصدق أكثر، إذ بالنسبة لرجل عربي يعيش في ذلك العصر، لم يكن الخوف مما يدَّعيه الناس، بل هم غالبًا ما يَدَّعون الشجاعة، بحيث يخرج بعضهم إلى الحرب، برغم شعوره بالخوف، فيُقتَل فيها، ويكون ضحية حرصه على ألا يوصفَ بالجبن. وهناك أمثلة كثيرة لمن اشتركوا مضطرين في مواقعَ وجنى عليهم الحرص على السمعة. وادِّعاء الخوف أمام الزوجة غير وارد، ألن تُصدَّق نبوته إلا إذا بدا خائفًا؟!.

وإذا كان قد افتعل الخوف، فهل افتعل الكآبة التي أصابته لما انقطع الوحيُ بعد اللقاء الأول مع جبريل؟

ما الفائدة في أن يدعيَ انقطاع الوحي بعد اللقاء الأول؟

لم يَرِدْ في ذهنه نصوصٌ جديدة؟

أهكذا تكون البداية، ثم يستمر الإنتاج ثلاثة وعشرين عامًا دون انقطاع؟!.

الطريقة التي وصف بها النبي محمد بدايةَ نزول الوحي، طريقة تتصف بالصدق الإنساني. كان محمد مشهورًا في القبيلة قبل الدعوة بالصادق الأمين، ولم يعهد الناس عليه الكذب، وكان هو الشخصَ الأفضل لإيداع الأمانات عنده، ومما ذُكر عنه أنه لما هاجر من مكة إلى المدينة نتيجة



الاضطهاد، ترك ابنَ عمِّه ليردَّ الأمانات التي عنده إلى أهلها.

صِدقُ محمد أراه في الرسائل التي بعثها إلى الملوك؛ لغة شديدةُ الاستقامة والإيجاز، ليس فيها عِوَجٌ أو التواء، مع أن التنميقَ ليس كذبًا، لكنَّ اللغة التي كتب بها ليست غليظة، ولا منمَّقة، بل لغة واضحة مباشرة. ولو قصدنا شخصًا أكاديميًّا معاصرًا، وطلبنا منه أن يكتبَ رسالة لصالح النبي محمد، في ظلِّ اختلال موازين القوى، فإن المثقفَ الأكاديمي المعاصر سيكتب رسالة طويلة مؤلفة من صفحات عدة، ويكاد يعتذر فيها عن إرسال الرسالة أصلًا! وأنا لا أدري إن جاز لي أن أقول: إن أصدقَ الناس هم من يستطيعون أن يقولوا ما لديهم في قليل من العبارات.

وهاك موقفًا غريبًا حدث مع النبي محمد، فعندما مات ابنه إبراهيم رضيعًا، كانت الشمس قد انكسفت في اليوم ذاته، فتناقل الناس أن الشمسَ انكسفت لموت ابن النبيِّ، أنا نفسي لو كنت موجودة لآمنت بذلك فورًا.

لكنَّ محمدًا صلى بالناس، وردَّ على ما تناقلوه بقوله: «إن الشمس والقمر لا يَخْسِفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله». أمعقول هذا؟!. إنه حقًّا

لصادق!، إن انكساف الشمس عند أي كاذب يعَدُّ ثمرةً ممتازة سقطت في حجره! والكاذب يحاول دائمًا أن يثبتَ أنه صادق بأيِّ دليل، فكيف لا يستفيد من المصادفة؟!.

وفي موقف آخر سأله أصحابه: لماذا لم تُشِر لنا بعينيك؟ (أي يعطيهم أمرًا بقتل رجل من ألدِّ الأعداء دون أن يتكلم). فقال لهم: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكونَ له خائنة الأعين». ونجا الرجل، وبعد ذلك قدم على الرسول وبايعه، وبذا استنقذَتْه المبايعة، وسقط عنه العقاب. لقد رأى محمد أن إعطاء إشارة بالعين سلوكٌ لئيم لا يناسب نبيًّا. من لا يسمح لنفسه بأن يعطيَ إشارة بالعين في الخفاء، هل يمكن أن يكذبَ على الله؟!.

ولما سمع بعضَ البنات يُنشدنَ في احتفال فرحٍ قائلات: وفينا نبي يعلم ما في غَدٍ. قال لمقدَّمتهن: «دعي هذا، وقولي بالذي كنت تقولين»؛ لأنه لا يعلم الغيبَ إلا الله، إنه يرفض أن يمدحَ بما ليس فيه، حتى في مناسبة فرح!.

هذه بعضُ ملامح شخصية محمد الصادقة. إلا أن الصدق الموثَّق هو هذا القرآن الذي يعاتبه فيقول: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧

وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ١-١٠].

فقد كان هذا الأعمى حريصًا على أن يتعلم الدين، وانشغل عنه النبيُّ بمحاولة إقناع سادة قريش بالإسلام، فعوتب فيه بقرآن يُقرأ إلى يوم القيامة.

وهل يبدو القرآن من عند محمد بعد قراءة هذه الآيات؟!.

أليس في هذا ردٌّ على ادعاء الكفار أن القرآن من عند محمد؟



خبير اللغة

ما هو ردُّ فعل إنسان ما، إذا قال أعضاء لجنة نوبل للآداب، أو أي مؤسسة أدبية محترمة، إنهم قد قرؤوا نصوصه التي بين أيديهم وأمعنوا فيها النظر، ثم حكموا عليها أنها سحر! كلام له الأثر الكامل للسحر!

من المؤكد أنه سيشعر بفرحة غامرة قد تصل إلى الغرور، حتى لو كان يقدم النص على أنه نصٌّ إلهي، فإن مجرد الاعتراف بأنه نصٌّ ساحر، هو في ذاته -من الناحية البشرية النقدية- أعلى درجات المدح. فما بالنا لو كانت اللجنة متعنتة أصلًا مع مقدِّم النصوص من الناحية الشخصية؟!.

لكنها شهادة لا تُرفَض، ويجدر بأي إنسان أن يعتزَّ بها، ويشهرَ هذا الاعتراف بنفسه.

أرسلت قبيلة محمد (قريش) واحدًا من سادتها وأفصح فصحائها وأعلمهم بفنون الكلام شعرًا وخطابة (ناقد أدبي رفيع المستوىٰ بالمفهوم الحديث)، هو الوليد بن المغيرة، أرسلته إلى النبيِّ محمد لمحاورته، كي يعدلَ عن دعوته، ويستمع منه. فتلا محمد شيئًا من القرآن، فقال الوليد بعد أن استمع: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغْدِق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه



ليحطم ما تحته، وما يقول هذا بشر».

حَنِقَ القوم على الوليد، وطلبوا منه أن يقولَ كلمة يصِفون بها كلام النبي حتى يصدُّوا عنه الناس عندما يَفِدون إلى مكة في مواسم الحج. فأخذ يفكر ويفكر، ثم قال لهم: أنا أعلم بالشعر والكِهانَة، ولن يصدقَ الناس هذه التهم، لكنه كلامٌ له أثر السحر، أي إن هذا ما يجب أن يقالَ للناس: محمد ساحرٌ بالكلام!.

فيأتي نصُّ القرآن ليندِّدَ بموقف الوليد الذي يعرف اللغة معرفة عميقة متينة، ويندِّد بعناده، ويتوعده بجهنم.

وعندي أنه لو كان القرآن من عند محمد لما أنتج نصًّا يندِّد فيه برأي الوليد، الذي هو أعلى درجة من المدح، لكنه ينفي عن النص الألوهية. الذكاء الإنساني مهما بلغ لن يعلِّقَ على رأي الوليد بهذه الكلمات القوية: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ١١-٢٦].

لكنَّ هذا ليس الأعجوبةَ الوحيدة، بل هناك ما هو أعجب، وهو أنه لو كان القرآن من عند محمد، أو من عند شخص آخر، فكيف يتنبأ بموت الوليد دون أن يؤمن برسالة محمد؟! خصوصًا أن الرجل نتيجة خبرته النقدية، بدا معترفًا بالإعجاز البيانيِّ والأسلوبيِّ واللغويِّ للقرآن، وسموِّه على كلام البشر.

وهناك كثيرون كانوا أشدَّ عداوة من هذا الرجل الأرستقراطي غير الفظ، ومع ذلك آمنوا. السنوات التالية لتلك الحادثة وتلك الآيات، شهدت إسلامَ من كانوا أكثرَ عداوة، وأسلط لسانًا، وأقل تأمُّلًا في القرآن، و من كانوا يسومون المسلمين عذابًا شديدًا. هل هذا رهان مأمون؟!.

لو أخذنا أحدَ أفضل أساتذة التحليل النفسي المعاصرين، وعدنا به إلى عصر الدعوة، وسمحنا له بأن يمدِّد جميع أفراد قبيلة قريش على سرير العيادة، واحدًا تلوَ الآخر، وأن يشاهدَ بنفسه الأحداث وردودَ الأفعال، فلن يستطيع أن يقدمَ قائمة بأسماء الميئوس منهم. هل يستطيع أن يقدمَ تلك القائمة إلى النبيِّ محمد، ويضمنَ له فيها أن الوليد لن يؤمنَ بعد يوم أو عام أو ثلاثة عشر عامًا؟! وكذلك عمُّ النبي محمد وهو أبو لهب وزوجته اللذان نزل فيهما قرآنٌ يؤكد أنهما سيموتان على الكفر دون أن يؤمنا في سورة من

القرآن تسمَّى سورة (المسد)؟.

بالطبع لن يستطيع. هؤلاء الثلاثة ماتوا دون أن يؤمنوا، وذلك بعد زُهاء ثلاثة عشر عامًا من نزول الآيات!.

ومن البديع أن النص القرآنيَّ يصف الصراعَ والتفكير في عقل الوليد بن المغيرة وهو يحاول أن يصلَ إلى حكم قاطع على القرآن، ولا تَشعر من الكلمات إلا أن الذي قالها كان يقرأ أفكارَ الرجل! أنا أهتم بهذا لأني أشعر أن التحليلَ النفسي لبعض المواقف، وفحصها فحصًا دقيقًا، لمعرفة ما إذا كانت ردودُ الفعل بشرية من لَدُنْ محمد أم لا، هو الوسيلةُ المضمونة عندي؛ لأني لم أشاهد معجزاته بنفسي.

ردُّ الفعل في هذه الحادثة غيرُ بشري؛ فالوليد من السادة، ومن الفصحاء الأَبْيِناء على مستوى العرب كلهم، ولم يتفوَّه بكلام يؤذي النبيَّ ويصف كلامه مثلًا بالركاكة، والنبي ما زال في مكة في مرحلة استضعاف؛ إذ الدينُ والدعوة محاصران بضغوط شديدة. فيأتي الرد متوعدًا بجهنم؛ لأنه قرر أخيرًا أن هذا القرآن كلام بشريٌّ ساحر! في حين لم يكن محمد حاضرًا عندما شاورت القبيلة الوليد، والنص يؤكد أنه لن يؤمنَ، هذا قرار مستحيلٌ على إنسان عادي مهما بلغ من الذكاء والحصافة والحُنكَة.

وهناك فائدة أخرى من المشورة التي قدمها الوليد، فقوم محمد الذين يبحثون عن تهمة تدمِّر سُمعته، اختار لهم الوليد تهمة السحر، بمعنى أن هذا الرجلَ الذي يتصف بالذكاء، لم يرَ اتهام محمد بأنه يأتي بهذا الكلام من عند معلم. ولو كانت هذه التهمة منطقيةً لاقترحها الوليد نفسه، ولما غابت عن باله، خصوصًا أن اتهامه بأن هذا الكلام مصدره فلان، كان كفيلًا بتدمير السمعة تمامًا.

لكننا اليوم نستطيع أن نتهم محمدًا بأنه تلقَّى القرآن من فلان أو علان! لأن الأمر يسير، ففلان غير موجود اليوم ليكذبَنا.

ولو كنا نمتلك عقلًا نقديًّا، لقلنا: إن فلانًا الذي يلقِّنه القرآنَ، فضلًا عن أنه من أكبر علماء اللغة العربية، فهو من علماء التوراة المعدودين! ويتنبَّأ بالمستقبل! ويقرأ الأفكار! وله سطوةٌ على محمد إلى الحد الذي يجعله يتكلم بما يجبُ أن يقولَه بلا حساب لردود الأفعال! ويَدخُل في كفاحٍ عمره ثلاثة وعشرون عامًا، منذ أول كلمات القرآن التي تلاها محمد، حتى آخر عمره! فمن يكون هذا الفلان؟ أيكون بشرًا؟!.

من العجيب أيضًا، أن القرآن توعَّد في سورة أخرى



الوليدَ بعلامة على أنفه، وسمَّى أنفه خُرطومًا كما للخنـزير والفيل، والعجيب أنه أصيب بالعلامة فعلًا في غزوة بدر بعد سنوات من الوعيد!.

ودلائل هذه وغيرها في القرآن، الذي كان يحفظه الكثيرُ من المسلمين فورَ نزوله على محمد. ومن لغو القول، أن نقولَ: إن محمدًا كان قدَّم التوعد بالعلامة على خُرطوم الوليد بعد أن حدث ذلك، أو تنبَّأ له بعدم الإيمان بعد أن مات، فالآيات مكية، والنبوءتان تحقَّقتا بعد سنوات طويلة، والوليد نفسُه قد بلغه الوعيدان!





العصمة

كلُّ شخصية سياسية تتوافر لها حراسةٌ على مدار الساعة، وعندما يكون القائد السياسيُّ مستهدَفًا تتعقد إجراءات الحماية إلى درجة الاهتمام بفحص الوَجَبات، وفحص أدواته الشخصية، وإخفاء تنقُّلاته.. إلخ. والتاريخ يشهد أنه لا ينفَعُ حذرٌ مع قَدَر.. ولْنذكُر اغتيال كنيدي، أو مارتن لوثر، أو غاندي، أو السادات.. وكثيرين غيرهم.

وبسبب احتمال الخطر على حياة أي زعامة، مهما كانت الزعامة محبوبة وعادلة، فإننا نتفهَّم سبب الحراسة الشخصية حول قائد ما. وإذا سمعنا عن قائد أنه يغامر بحياته، ويُلغي جميع الإجراءات الأمنية التي تحيط به، فإننا نعجب. إن احتمالَ الاغتيال يصير واردًا، بل واردًا جدًّا في هذه الحالة، خصوصًا إذا كان يعيد هندسةَ المجتمع من جديد، وله خصوم مثلما له أتباع. على أي حال لن يستطيعَ هذا القائد أن يقول: لن أموتَ مقتولًا. فهذا شيء غيرُ مضمون في ظلِّ الحراسة المشدَّدة، فما بالنا إذا تجوَّل القائد بلا حرس ولا حماية؟!.

أما محمد النبيُّ والقائد فلم يتخذ حراسةً ولا حماية؛ لإيمانه وثقته بقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾

[المائدة: ٦٧]. هذا الأمر لا يمكن أن يتهاونَ به مدعي نبوَّة، إنه الأمن الشخصي!.

إذا سمعنا عن قائد مستهدَف وحوله حماية، فهذا عادي جدًّا. وإذا سمعنا أنه ألغى الحماية، فهذا يثير العجب! وإذا سمعنا أنه يقول: إن الله يحميني ولن أُقتل، فإن هذا يثير الدهشة! وإذا لم يُغتَل برغم تعرُّضه لعدة محاولات اغتيال بعد هذا التصريح الجريء، فإن هذا يثير الذهول! ماذا أستطيع أن أقول؟ إنَّ الذي يحرك محمدًا حافظٌ لا يغفُل.

ومرَّت بالنبي محمد تجارِبُ عديدة صعبة، منها ذلك اليوم الذي هاجر فيه من مكةَ إلى المدينة، وكانت قريش قد قررت قتله، فانتظره أحد عشر رجلًا من قبائل شتى، ومعهم السيوف منتظرين خروجَه من بيته، فيخرج من بينهم ولا يرونه! ويأخذ حَفْنةً من التراب ويضعها على رؤوسهم ويمضي! وظلوا منتظرين خروجه زمنًا، وكان قد رآه أحد الأشخاص من بعيد، فقال لهم: خِبتُم وخَسرتُم، قد والله مَرَّ بكم، وذرَّ على رؤوسكمُ الترابَ ومضى لحاجته.

وأمثلة كثيرة شاهدها المسلمون من حوله، وأبصرها الكفار بأعينهم، لكنهم بَقوا على يقينهم بأنه ساحر.

ومرت عليه مواقفُ شديدة الصعوبة في المعارك، مواقفُ

تستدعي أن يهربَ أشجع الفرسان، ولكنه بقي فيها ثابتًا مقبلًا بشجاعة وإقدام. لقد قرأتُ تاريخ المعارك التي شارك فيها، كان يثبت مكانه وما فرَّ من معركة قَطُّ، مع أن الفِرار ضرورة أحيانًا. هذا مع العلم أنه كان في أُولى معاركه في نحو الرابعة والخمسين من العمر، (كنت أتخيله فيما مضى، أنه كان في المعارك شابًّا مفتولَ العضلات، شديد القلب، يزأر كالأسود، وليس رجلًا في الخمسين!). وقد كانت كلماته في تلك المواقف الحربية الصعبة التي مرَّ بها، والتي تطيش بعقل القيادات البشرية العادية، هي: أنا النبيُّ لا كذب. يقولها وهو ثابت في مكانه ليجمع المسلمين حَواليه.





تسجيل الوقائع

اعتنيتُ جدًّا بمعرفة كيف يسجِّل القرآن وقائعَ مهمة في حياة النبيِّ محمد، واخترت لنفسي هدفًا هو أن أرصدَ طريقة تسجيل القرآن للمعارك المهمة التي خاضَها المسلمون مع الكفار؛ لأني متيقِّنة أني سأجد شيئًا ما ذا بال. إن أيَّ قائد عسكري يحارب بجيشه عن مبدأ، أو دفاعًا عن الوطن أو الدين، أو حتى لأغراض توسعية بحتة، وينتصر، فهناك أسلوبٌ بشري لتسجيل الانتصار يدوِّنه التاريخ، حافل بتمجيد انتصارات الشعوب والأبطال على الجدران وفي المعابد واللفائف والأوراق. سواء للفرس، أو الروم، أو الفراعنة، أو في معارك نابليون وغيرها... هناك ناظم مشترك لكل تلك الانتصارات، وهو الفخر، والزَّهْو والاعتداد بالنفس.

فكيف كان حالُ محمد مع الانتصار؟

بعد سنوات من الضيم والملاحقة والتضييق، واجه جيشُ المسلمين في أول مرة جيشَ الكفار الذي كان يبلغ ثلاثة أضعافه، ويتميز بمستوًى أفضل في العُدَّة الحربية. والمنطق يقول: إن هزيمة ساحقةً تنتظر المسلمين، تقطع دابرهم، وتكسر شوكتهم، كما توقَّع الكفار. لكنَّ المسلمين حقَّقوا انتصارًا ساحقًا أذهلهم، وأذهل أعداءهم! ورفع معنويات

المنتصرين. وهذا هو تسجيل القرآن للمعركة ونتائجها: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦]. هل هذا تسجيلٌ بشري لنصرٍ غالٍ ومذهل جاء بعد سنوات طويلة من المعاناة والطرد والملاحقة؟!.

بالتأكيد لا، أين الزَّهْو والانتفاخ؟ وأين الألفاظ الرنَّانة في تسمية المعارك؟.

الفخر وأخبار المعارك من أهمِّ المواضيع التي كان العرب يصوغون فيها شعرَهم الذي ما زال باقيًا حتى الآن. وتبدو تلك الكلماتُ التي تشير إلى هذا النصر في النص القرآني، تبدو منقطعةَ الصلة بتاريخ الفخر الإنساني في المعارك والملاحم، ومنقطعةَ الصلة بصوغ العرب لأشعار المجد والبطولة. غير أن الجميل في هذا أن هذه المعركةَ حدثت بعد مرور عام من هجرة النبيِّ محمد من مكة إلى المدينة.

وما الجميل في هذا؟.

إنها مبشَّر بها في التوراة في (إشعياء): «فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار،



وبقية قسي أبطال بني قيدار تقِل؛ لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم»، فقبيلة محمد (قريش) من نسل قيدار، وحقًّا بدأت عُدَّة القبيلة تقِل بعد هذه المعركة شيئًا فشيئًا.

والآن أنتقل من تسجيل القرآن خبرَ النصر، إلى تسجيله خبرَ الهزيمة التي حدثت للمسلمين. كيف سَجَّل القرآن هذا الخبر؟.

تعرض المسلمون إلى هزيمة في معركة (أُحُد)، وكانت مواجهةً عنيفة. وقد نزل في موضوعها ستون آيةً في سورة واحدة، ستظل تُقرأ إلى يوم القيامة. هل من مصلحة التدوين البشريِّ أن يستفيضَ في أمر الهزيمة؟.

قرأت الآيات بإمعان، ورجعت إلى التفاسير، إنها ليست توبيخًا قاسيًا لجيش المسلمين، ولكن إبرازٌ للدروس المستفادَة، وقد يتخيل إنسان لا يؤمن بمحمد أن وجودَ ستين آيةً عن الهزيمة يعني أن محمدًا فَقَدَ أعصابه نتيجة المعركة! فأطال في تعنيف جيشه، وهذا غير صحيح. فالآيات لا تنمُّ عن هذا. لكنَّ ما لفت انتباهي هو: أن الحرب سِجال، وهناك فرصةٌ للثأر لتلك الهزيمة، فلماذا تخليدها بهذا العدد من الآيات؟!.

النبيُّ محمد أحزنته جدًّا نتيجة المعركة، ففيها جُرِح،

وفيها قُتل عمه (حمزة) الذي يحبه كثيرًا، ومثَّل الوثنيون بجثث المسلمين. أي أن ذلك اليوم كان شاقًّا جدًّا على محمد والمسلمين، لكن الآيات التي تتحدث عن المعركة قوية وفوقية ومُحكمة، وبأسلوب القرآن ذاته. لا أشعر أن من صاغ تلك الصياغة غشيه غُبار المعركة. ومحمد كان في أعلى درجات حُزنه، ولو كان هو الذي يكتب القرآنَ لظهرت عواطفه في الآيات، لكنَّ الكلمات لا تبدو فيها أنَّات إنسان تعرَّض للهزيمة مطلقًا. إن هذا لعجيب!. فحتى الأمم العصرية لا يسجل مبدعوها من كتَّاب وشعراء وسينمائيين، التجاربَ العسكرية الخاسرة، بطريقة عقلانية تدعو للاستفادة إلا بعد مرور زمن طويل، حتى تذهبَ الغُصَّة من الحلق، فيبدأ الإبداع غير المحموم، لكنَّ التعليق الفوقي على معركة أُحُد، جاء بعدها توًّا، وبلا كآبة إنسان منهزم.





المبدئية

ليس من الصعب أن نتعرَّف بعضَ الجوانب من شخصية تاريخية خلافية، إذا ما توافر قدرٌ كبير من المعلومات عنها وعن سيرتها. وهذا متاحٌ في شخصية محمد كما لم يُتَح في أي شخصية تاريخية دينية أخرى. والمبدئية هي المعيار الملائم للحُكم على شخصية دينية أساسية، وأعني بالمبدئية هنا: مدى سيطرة أفكار أساسية على عقل الشخصية الدينية ومسيرتها، وتمثلها لهذه الأفكار، والالتزام بها. وهناك طبعًا فرق في المبدئية بين المتنبِّئ والنبي.

لن يعمل المتنبِّئ على قلب كلِّ العادات الاجتماعية السيئة في عصرٍ ما، بل سيكون متصالحًا مع أكثرها؛ لأن المتنبِّئ يهمه بروز اسمه أكثر مما يهمه بروزُ مبادئ أو منظومة أفكار.

ولكن ماذا عن محمد؟

لقد حرَّم الخمر والقِمار والزنى، وهي تقريبًا أهمُّ وسائل الترفيه في بيئة صحراوية خشنة. فالخمر كان العرب يَعدُّون لها أسماءً كثيرة، ويكتبون فيها الكثير من قصائد الشعر. والقِمار كان فاشيًا بينهم، وكانوا يَعُدُّونه وسيلةً من وسائل الكرم، بحيث يستفيد حاضرو الرِّهان من نتيجته. أما الزنى

فرغبةُ النفوس فيه في كلِّ بيئة، مسألة لا تحتاج إلى شرح.

لقد حارب محمد الرقَّ، وكان الرق أحدَ أهم محركات الاقتصاد في العالم كلِّه، ومنه منطقة الجزيرة العربية، وهو يمثل ثقافةً كانت سائدة منتشرة، كانت لا ترى فيه انتهاكًا للإنسانية، وأغلب الشعوب كانت لديها مفاهيمُ عِرقية تؤيد التمايز بين البشر. أما في شريعة محمد، فتحريرُ إنسان من الرقِّ هو أحد أفضل الوسائل للتقرب إلى الله، أو للتكفير عن ذنب.

لقد حارب محمد الثأرَ بين القبائل العربية، والعرب تسجِّل تواريخهم مآسيَ وحروبًا استمرت سنوات طويلة، كادت أن تبيد فيها بعض القبائل، وغالبًا ما تقوم الحرب لأسباب تافهة! وقد كان للعصبية القَبَلية الدور الأهم في إذكاء تلك الثارات، وكان العُرف البدوي يجعل الرجل ساقطًا من كل الحسابات لو تنازل عن ثأره، ومحمدٌ قضى على هذه الثارات التي كانت فاشيةً في عصره.

لقد قضى على عبادة الأصنام، وكانت عادةً اجتماعية ودينية متأصِّلة عند العرب، ولم يكن في وسع أيِّ رجل حكيم أن يحلمَ بإزالة كل هذه الأصنام، وأن يبعثَ رجاله لإزالة صنم كلِّ قبيلة، أيًّا كان نفوذ تلك القبيلة وقوتها.

أستطيع أن أقول: لو كان محمد يعتمد على نفسه، وعلى مواهبه الشخصية فقط، لاحتاج أن يعيش عُمرًا كعمر نوح، حتى ينجزَ ما أنجزه بالقليل من الوسائل التي كانت معه.

لا بد أن تبدوَ في حياة المتنبِّئ ثغرة في شؤونه الأخلاقية والشخصية قبل الدعوة، ربما تعرقل مسيرته. أما محمد فلم يجد له خصومُه أي عيب أو سقطة ندَّت عنه قبل الدعوة، والمجتمع العربي الذي كان يعيش فيه محمد لا يشبه هذه المجتمعات الحديثة التي يفتقد فيها الإنسانُ الانطباعَ الدقيق عن جاره. محمد كان يعيش وَسْط قبيلته مدة أربعين عامًا قبل الدعوة، وكان لقبه الصادق الأمين، ولم يكن محمد في هذه المدة رجلًا مجادلًا يشف جدله عن أفكار تختمر في رأسه، أو عن نزعة للظُّهور.

المتنبِّئ سيحتاج إلى مِرانٍ نفسي طويل حتى يضبطَ نفسه وفق التعاليم الأخلاقية التي ينادي بها؛ لذا سيحاول ألا يعيش حياة كاملة بين أتباعه. أما محمد فكان ينادي بطاقة من القيم والأخلاق، وكان هو النموذجَ الأرفع في تطبيقها على نفسه، وكان محاطًا بأصحابه دائمًا، وهذا لا يتيح فرصةً لخداع الآخرين.

إن العرب بطبيعتهم لا يمكن تصنيفُهم ضمن تلك الشعوب التي لها إيمانٌ قوي بالغيبيات، أو التي تُضفي القدسيةَ على البشر. حتى شعرُهم لا أجد فيه حديثًا واضحًا عن الغيبيات، ومن ثَم فهُم شعب ليس قابلًا للتنويم المغناطيسي، بل هو يرى الناسَ والأشياء على الحقيقة.

المتنبِّئ يعزز تفرُّده عن طريق طقوس غريبة، أو زِيٍّ غريب، وسيحيط نفسه بهالة من الخصوصية، وسيحجُب نفسه عن الأتباع؛ لبعث الهيبة في نفوسهم له.

أما محمد فكان رجلًا متواضعًا، رآه أصحابه يَخصِفُ نعلَه، ويَحلُبُ شاته، وكان يرفض أن يعاملَه الناس معاملة الملوك، وكان يشبه مَن حوله في كلِّ شيء، وعندما يصافح رجلًا ما كان من رقَّته وحُسن ذوقه لا يبدأ بسحب يده حتى يكون الرجل هو البادئ.

المتنبِّئ سيحسُب حساب التوازنات والقوى المحيطة به، وسيكون لديه مواهبُ تسمح له بالتسلق واللف والدوران. أما محمد فلم يُعرَف عنه شيء من هذا، من بدء مسيرته الدعوية. ولم يتحاشَ توجيه خطابه إلى أي فئة، فقد كانت دعوته عامَّة وصريحة: «أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله، تفلحوا».

المتنبِّئ لديه حدودٌ قصوى لمقاومة العروض المغرية،

وحدود قصوى لتحمُّل الضغوط، وهذا ينطبق أيضًا على المصلح الاجتماعي. أما محمد فقد عرض عليه كبراء قبيلته عروضًا مغرية، أن يصيِّروه ملكًا عليهم، وأن يجعلوه أغناهم وأكثرهم نفوذًا، شرط ترك أمر الدعوة، فرفض رفضًا تامًّا، وقال: إنه مستمرٌّ في هذه الطريق حتى ينجزَ الدعوة أو يموت.

وتحمَّل في سبيل ذلك من الأذى الكثير، وتحمَّل معه أصحابه، ومن أشد الأذى محاصرته مع جميع المؤمنين بدعوته وجميع أفراد فرع قبيلته مدة ثلاث سنوات، اضطُرُّوا فيها إلى أكل جلود الحَيَوان، وأكل ورق الشجر!.

المتنبِّئ بشر تحدُثُ تطورات في شخصيته؛ نتيجةً لاتساع قاعدة الأتباع وتوالي النجاحات. أما محمد فكانت شخصيته مرآة لقيم وأسس أخلاقية لم تتغيَّر ولم تتبدَّل، من البداية حتى الممات. التواضع ذاته، والصراحة والحياء والتجلُّد والصبر، وزيادة الأتباع لم تُشعره برغبة في الراحة، وتقدم سنه لم يَفُتَّ في عضُد همته وحيويته، وانتصاره على أعدائه والتمكين له ولدينه لم يؤثر في تواضعه.

لقد قُبض وكان يمرُّ عليه الشهران لم يأكل فيهما إلا التمرَ والماء! برغم تحسن الظروف الاقتصادية للدولة،

وإقبال الدنيا عليه. ومن أعجب الأشياء في شخصية محمد، أن طباعَه لا تبدو كالرسم البياني يتحرك صعودًا وهبوطًا بحسب الظروف، ولكنه بقي إلى اللحظات الأخيرة من حياته قائمًا بأداء الرسالة التي أُمر بتبليغها، وكان مشغولًا بأتباعه هل أدَّوا الصلاة أو لا، ورمى نظرةً عليهم وهم يصلُّون، وهو في ذروة مرضه، ثم ابتسم فرحًا.

هذه ملامح من المبدئية عند النبي محمد، سيرة رجل كان كلُّ همه أن يؤمنَ الناس بالله، وكان هذا الإيمان كفيلًا بحلِّ أي عقدة بينه وبين أي مخلوق، حتى قَتَلَة أصحابه وعمه. عاش حياته في جهاد متواصل، ومحن متتالية، حتى أنجزَ مهمَّته؛ لذا كان من آخر كلماته قبل الوفاة، لابنته التي آلمتها أوجاعُه ساعة الاحتضار، ردًّا على قولها: واكَربَ أبتاه! قال لها: «لا كَربَ على أبيك بعد اليوم يا فاطمة».





محبة محمد

لكي أعرفَ من هو محمد، يجب أن أتعرف حبَّ الناس له.

هناك نماذج حديثة للشخصيات التي التفَّتْ حولها أمم، وشعر الناس أن هذا القائدَ أو ذاك هو تعبير عن الأمة وما تطمح إليه. أنا لا أبحث عن القُدرة على ضبط الناس، ولكن عن القُدرة على تحريك مشاعرهم، واستخراج أفضل ما فيهم. فإذا كان لغاندي محبة الهنود، ولتشي جيفارا محبة شباب الستينيات، ولهوشي منه محبة الفيتناميين، ولمانديلا محبة الأفارقة، والكثير من القادة الذين استولَوا على المشاعر. فلنرَ نصيب محمد من حبِّ الناس الذين عاش بينهم، فهذا أمرٌ يستحق أن يوضعَ في الاعتبار.

مسلم اسمه زيد بن الدُّثُنَّة، أُسر في سَرية، فقدمه الكفار للقتل، وقال له أحدهم: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن مكانَك نضرب عنقَه، وأنك سالم في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدًا الآنَ في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأني جالسٌ في أهلي.

قال أبو سفيان: ما رأيتُ في الناس أحدًا يحب أحدًا كحبِّ أصحاب محمد محمدًا. ثم قُتل زيد.

وقف أبو بكر في قريش خطيبًا يدعوهم إلى الإسلام، وما زال المسلمون في المرحلة السِّرية للدعوة، وهم أفرادٌ قليلون، فقام إليهم المشركون يضربونهم ضربـًا شديدًا، وضُرب أبو بكر حتى صار لا يُعرف أنفه في وجهه، فجاء قومه بنو تَيم فأجلَوا المشركين عنه وأدخلوه منـزله، وهم لا يشكُّون في موته. وبقي أبو بكر في غَشية لا يتكلم حتى آخر النهار، فلما أفاق كان أول ما تكلم به: «ما فعلَ رسولُ الله؟» فلامه الناس، لاموه على أن يذكرَ محمدًا في مثل هذا الموقف الذي يفترضون فيه أن يهتم بنفسه، وأن يتحسَّر على حاله. لاموه فما أَبِهَ بهم، وصار يكرر سؤاله، ويقول: «والله لا أذوق طعامًا، ولا أشرب شرابًا، أو آتيَ رسول الله».

أما خبر سعد بن الربيع الذي أُصيب في معركة، فعجيب حقًّا. سأل عنه النبي: «أفي الأحياء سعد أم في الأموات؟» فخرج أُبيُّ بن كعب يستطلع الخبر، فوجده في الرَّمَق الأخير، فقال سعد: بل أنا في الأموات، فأبلِغ رسولَ الله عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنَّا خيرَ ما جزى نبيًّا عن أمته! فتأملوا آخر كلمات يتلفَّظ بها امرؤ ساعة الاحتضار!

ومما يذكر أيضـًا من هذا الحب الذي لا حدود له، حكاية تلك المرأة من بني دينار، وقد أُصيب زوجها وأخوها

وأبوها مع رسول الله بأُحُد، فلما نُعُوا إليها قالت: «فما فعلَ رسولُ الله؟»، قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. فقالت: أرونيه حتى أنظرَ إليه. فأشيرَ لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل!! ولا أستطيع عقب هذا الكلام إلا وضع علامة تعجب.

وفي المعركة الصعبة كان أبو طلحة يرمي بالسهام لينافحَ عن النبي، والنبي يكبِّر ويثني عليه ثم يشرف على القوم، فيقول أبو طلحة: يا رسول الله لا تُشرف على القوم فيصيبَك سهمٌ، نحري دونَ نحرك يا رسول الله.

و أم أيمن، لما رأت فُلولَ المسلمين يريدون دخول المدينة والحرب قائمةٌ لم تنتهِ، أخذت تحثو الترابَ في وجوههم، وتقول لبعضهم: هاكَ المغزل، وهلمَّ سيفك. يعني خذ عُدَّة المرأة، وأعطني عُدَّة الرجل. ثم سارعت إلى ساحة القتال، وهي غير مكلَّفة بالقتال أصلًا.

الحب ظاهرٌ في الكثير من المواقف الحياتية العادية، وقد اخترت المواقفَ الصعبة؛ لأنها تفصل ما بين المشاعر الصادقة والمشاعر الزائفة، وأجمل ما في هذا الحبِّ الجارف أمران:

الأول: أنه لم يكن سببًا في تأليه محمد، علمًا أن

تقديس البشر في تلك العصور كان واردًا، في حضارات عدة. وهذا الرجل المحبوب جدًّا، كان يكره أن يقومَ له الناس إذا جاء، ولا يميِّز نفسه في أي مجلس، ولا يحيط نفسَه بأي مظهر من مظاهر الأُبَّهَة. وهذه مشاعرُ لا تمثل انعكاسًا لحالة انبهار بالسطح الخارجيِّ للشخصية، وليست نتيجةً لسلسلة من الأناشيد الحماسية التي تمجِّد القائد الملهَم! وإن هذا الحبَّ لرجل شديد الحياء والتواضع، مرآةٌ تعكس جوانب من شخصية محمد وصدقه.

والأمر الآخَر: هو أنه مع هذا الحب الجارف، لمَّا مات محمد لم ينتحر أيُّ مسلم حزنًا عليه؛ لأن الانتحارَ من أكبر الآثام في الإسلام، ووقف أبو بكر أقرب أصحابه وأحبهم إليه خطيبًا ليقول: «أيها الناس، من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات. ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت». إنه حبٌّ مبني على تربية سليمة مستقيمة!.





محبة المسيح

للمسيح والسيدة مريم مكانة ممتازة في الإسلام. أما السيدة مريم، فيذكر القرآن أن الله اصطفاها على نساء العالمين، وهناك سورةٌ كاملة باسمها، في حين ليس في القرآن سورةٌ باسم عائشة أحبِّ زوجات النبي إليه، ولا باسم ابنته الغالية على قلبه جدًّا فاطمة، بل هناك سورة كبيرة باسم عائلة مريم وهي (آل عِمران).

وذُكر المسيح في القرآن مرات كثيرة، ووصف بأوصاف جليلة؛ رسولًا من عند الله. وذُكر له العديد من المعجزات، كإحياء الموتى وإبراء المرضى ورد البصر للعُمْي. ومن المعجزات بل أولها، ولادته من غير أب، وكلامه وهو طفل رضيع في المهد.

عندما سأل اليهودُ مريمَ عن قصة ولادتها، ورَمَوها في شرفها، أشارت إلى ابنها الذي ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٢]. لذا يُعَدُّ القرآن وثيقةَ دفاع عن المسيح ومريم، وتبرئة لهما من كل تهمة باطلة. وفي الإسلام

يكفُر من يعتقد أن ولادةَ المسيح كانت من أب بشري.

وإن المكانة الممتازة للمسيح في القرآن تمتدُّ لتشملَ تلاميذه أيضًا، الذين حمَّلهم مسؤولية الدعوة. وعلى أيِّ حال، فإن المسيح عمومًا إما شخص لا يعبأ به بعض الناس، أو مكروه عند فئة أخرى. ولكنه محبوب عند فئتين من البشر هما المسلمون والمسيحيون، والخلاف محتدمٌ بين محبِّيه فقط، ولا يتحرج المسلمون من ذكر كلمات روحية وردت عن المسيح، وكتب المسلمين تورد أحاديث كثيرة عن المسيح، ونمط حياته، وزهده. حتى إن بعض المصادر تسمِّيه إمام الزاهدين، وليس عند المسلمين حسُّ التفرقة بين الأنبياء، اتِّباعًا منهم لنصوص القرآن والأحاديث النبوية.

التربية الدينية في الإسلام تمنع المغالاة في العواطف إلى حدِّ التأليه للمسيح أو أي إنسان، وهذا هو الخطُّ الأحمر لدى المسلمين. أستطيع أن أعبِّر عن الاختلاف بين المسلمين والمسيحيين بطريقة يسيرة، وهي أن المسلمين يمكنهم أن يسمُّوا أبناءهم عيسى ومريم، لكن اسمَ عبد المسيح ممنوع ومحرَّم.

ومع أن المسيحيين عمومًا يغالون في المسيح، ويؤلِّهونه، نجد من السائغ عند فئات منهم تناول المسيح في

عمل أدبي أو فني، بمعاييرَ لا تتفق مع التعاليم الكَنَسية، في حين يستحيل أن يصدرَ هذا في بيئة مسلمة.

ومن العجب الذي عرفتُه، أن المسلمين يؤمنون بأن المسيحَ سينزل في آخر الزمان، ويقتل المسيح الدجَّال، وهذا ما صرَّح به النبي محمد نفسُه. وأنا معجبةٌ بالنزاهة الإسلامية عمومًا، وتجاه المسيح خصوصًا؛ ومن ثَم فإن أيَّ نقد إسلامي لعقائد مسيحية لا أَعُدُّه مبنيًّا على التعصُّب.

وأستطيع أن أقولَ بلا حرج: إن الأفكار التي يختلف فيها المسلمون عن المسيحيين كانت مثارةً بقوة في القرون المسيحية الأولى. أي أن هذا الخلافَ ليس أوسعَ من خلاف المذاهب المسيحية قديمًا قبل بروز تيَّار مدعوم من روما؛ الحاكم والبابا.

لم يعاصر المسلمون المسيحَ حتى أختبرَ عواطفهم تجاهه، لكنَّ نصوص القرآن كفيلةٌ بزرع التبجيل والمحبة له في نفوسهم. ولم يَبدُ لي القرآن نصًّا متعصبًا ضد المسيح أبدًا، لكنَّه بين بوضوح أن كل المعجزات التي فعلها المسيح كانت بإرادة الله وقدرته سبحانه. وأستطيع أن أقولَ: إن مشاعر المسلمين وعواطفهم الكامنة، موجهةٌ إلى الله، وينظرون إلى كلِّ الأنبياء على أنهم فئة مُصطَفاة أدت



رسالتها، ومهَّدت للبشر طريقَ النجاة. وهم يحبُّون الأنبياء جميعًا وفق هذا التصوُّر، دون مبالغة ولا غلو.





أصالة القرآن

(القرآن معتمدٌ على الكتاب المقدَّس) هذه هي إحدى أشهر الفرضيات التي تشكِّك في القرآن أن يكون نصًّا أصيلًا!

ومن ثَم فهذه الفرضية تشكِّك في القرآن نصًّا إلهيًّا! ولذلك قررتُ أن أفحصَ عن سلامتها وصحتها، وسأمنح نفسي زمنًا كافيًا لقراءةٍ متأنية مبصرة للكتب السماوية الثلاثة، مع استعانةٍ بتفسيرٍ للقرآن. آخذةً على نفسي ألا أخطَّ حرفًا واحدًا قبل الفهم والتيقن.

فكرة التوحيد حاضرةٌ بجلاء في القرآن، وهي واضحة في التوراة، ومختلطة قليلًا في الإنجيل، والتثليث مهندَس بصورة متعمَّدة. لكنَّ الله هو رب العالمين في القرآن، ويبدو في التوراة كأنه ربٌّ لبني إسرائيل فقط!.

الله موصوف بكل صفات الكمال في القرآن، فلا يتعب، ولا يندم، ولا يُضلل، ولا يتعرض للضرب المبرِّح كما في التوراة.

فكرة التوحيد، بالرجوع إلى بعض المراجع، ليست اختراعًا توراتيًّا، فهي موجودة عند قبائل الهنود الحمر، والقبائل الوثنية في أفريقيا، فكرة الله الأعلى والخالق

الأعظم، بمعنى أن الناس توارثوا عن الأسلاف بطرق شتَّى فكرةً عن الله، وتعرضت هذه الفكرة لكثير من التخليط. وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ [يونس: ١٩].

الاهتمام بيوم القيامة وبالآخرة ضعيف تقريبًا في الكتاب المقدَّس، إذا ما قورن بالقرآن. ووصفُ أهوال يوم القيامة، ونعيم الجنة، وعذاب الجحيم، له تأثيرٌ قوي في حياة المسلمين.

مع القرآن شعرتُ أن المتكلم هو الله، ولم يفارقني هذا الشعور في أي آية، ومع الكتاب المقدس لم يكن هذا شعوري في نصوص كثيرة. وبعبارة أوضح، المتكلم ليس الله ولا عيسى ولا موسى، إنه شخص آخرُ غير الله وغير النبي!.

من الواضح جدًّا في الإنجيل أنه تدوينٌ بشري لسيرة عيسى. وفي التوراة شعرتُ في مواضع بأن النصَّ إلهي، لكنني شعرت في نصوص أخرى كثيرة بخلاف هذا. ومن الأمثلة البيِّنة: الآية التي تشير إلى موت موسى، وأنه دُفن في مكان لا يعلمه أحد؛ إذ لا يمكن أن تكونَ هذه كلمات الله أو كلمات موسى المتوفَّى.

الأنبياء في القرآن موصوفون من الله بكل صفات الكمال

الإنساني، على أنهم صفوةُ خلق الله، المكلفون بهداية الناس. وموصوفون بالصلاح والحِلم والتقوى والبرِّ والرحمة والخشوع.. إلخ. في التوراة يختلف الأمر جدًّا، فنوح كان يسكر، وإبراهيم كان متزوجًا بأخته، ولوط زنى بابنتَيه ونَسَلَ منهما، وابن يعقوب زنى بجارية أبيه (أم إخوته)، ويهوذا زنى بأرملة ابنه، وهارون صنع العِجل ليعبدَه بنو إسرائيل، وداود زنى بامرأة قائدٍ في جيشه ووُلدَ له منها، وتخلَّص من زوجها في الحرب، وسليمان ارتدَّ وعبد الأصنام!! ولا تعليق سوى: إن الله أدرى بمن يرسل.

ليس في القرآن آياتٌ خادشة للحياء، أو يُتحَرَّج من تلاوتها في جلسة عائلية، أو في حضور الصغار. حتى محاولة زليخا غواية يوسف عرضها القرآنُ بصورة سامية. في حين لا يمكن قراءة بعض الآيات التوراتية في جلسة عائلية، كما لا يمكن مشاهدة كل الفضائيات في جلسة عائلية؛ إذ هناك آيات توراتية تستوجب التشفير!.

السرد التوراتيُّ يغلب عليه الطابع الشعبي الملحمي الذي يهتمُّ بأخبار الأمة، ومسارها في التاريخ، وعدد الأعوام التي عاشها كلُّ نبي أو حاكم، وأسماء أبنائه إلخ..

أما السرد الإنجيلي فهو مثالٌ لعدم ضبط الروايات. ومن



ناحية أخرى تظهر حكاية ركوب المسيح للجحش، في كلِّ الأناجيل، في حين لا تظهر الكلمات المؤثِّرة للمسيح في نهاية عشائه الأخير، إلا في إنجيل واحد! أما النَّسب الأهم وهو نسب المسيح، ففيه روايتان متناقضتان بوضوح!.

وأما القرآن فلا يهتم بأخبار شَعبٍ ما، وإنما يحكي القصصَ بإيجاز ويعرضها عرضًا مؤثرًا، بغرض تقديم العِبرة.

ومما يدل على أن القرآن ليس اقتباسًا من التوراة، ذلك التكرار لقصة نبيٍّ واحد في أكثر من موضع. ولو كان العمل مقتبسًا لذُكرت قصة نبيٍّ ما في سورة واحدة من القرآن؛ تجنبًا للتناقضات بين روايتين. لكن برغم هذا التكرار لم يقع أي تناقض، بل في كلِّ موضع يكون وقع القصة مختلفًا، دونما تعارض. في حين نجد الكتاب المقدس الذي يُزعَم أن القرآن مقتبسٌ منه، فيه تناقضات ليست قليلة في الروايات عن ذات الحدث وذات الشخوص.

والسرد التوراتيُّ يتعارض مع حقائق التاريخ أحيانًا! وعلى سبيل المثال لا الحصر، بداية ظهور آدم على الأرض، التي حُددت بسبعة وثلاثين قرنًا قبل ميلاد المسيح، في حين كانت هناك أممٌ قائمة في ذلك الوقت، ولا يُعقَل أن يكون بين ظهور آدم وبناء الهرم الأكبر **١٢٥٠** سنة فقط! وكذلك



طوفان نوح الذي من المفترض بحسب التوراة أنه شَمِلَ الأرضَ كلها، على حين هناك حضارات كثيرة لم تشهد انقطاعًا في ذلك التاريخ الحديث، حيث غرقت كلُّ الكائنات الحية خارج السفينة، فهل غرقت الكائنات البحرية؟!.

قصة الطوفان في القرآن تُبرز الطوفان عقابًا لقوم نوح، ولا تؤكد شيئًا بخصوص الشمولية أو زمن الحادثة.

لو كان القرآن مستمدًّا من التوراة لما اعتنى بالتعبير عن تلكم المشاعر الإنسانية المختَلِفَة في القصص. وبخاصة إذا كان المصدر المستمدة منه القصص تبدو فيه الحالة النفسية والشعورية غير واضحة، ولو افترضنا وضوحها في التوراة -وهذا غير صحيح- فإن الاقتباس سيكون لصالح نقل الأحداث والتعبير عنها بصور مختلفة، بغرض التعمية على الاقتباس. ومؤكد أن هذا سيكون على حساب إبراز مشاعر الشخصيات. لكن على كل حال، سواء كانت القصة مرويةً في التوراة أم لا، يظل هناك اهتمامٌ بالتعبير عن الحالة النفسية في قصص القرآن، بصورة أبرز وأحكم مما في التوراة.

إليك بعضَ الأوصاف النفسية في القرآن: نقرأ عن حزن يعقوب أمام بنيه، حزنه بسبب فقده ولده يوسف: ﴿وَتَوَلَّىٰ

عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

ونقرأ عن الرجل الذي دخل بستانه فوجده قد خرب إثر اغتراره بماله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٤٢].

ونقرأ عن شعور ابنة شعيب وهي ذاهبةٌ لتدعوَ موسى ليحضرَ إلى أبيها: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

ونقرأ عن شعور لوط عندما جاءه الملائكة في صورة شباب حسان، واستقباله إياهم على هذه الصفة، وخوفه من أن يأتيَ قومه الشواذُّ ليسيئوا إلى ضيوفه، فهم الذين ابتدعوا العلاقة الشاذَّة بين الذكور: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧].

ونقرأ عن شعور أم موسى بعد أن وضعت ولدَها في الصندوق وقذفته في النيل، وعن تعلقها الشديد بولدها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

القرآن أسلوبه موجزٌ ودقيق، ولا مجال للحشو فيه، ومع

هذا لا يخلو من ذكر بعض التفاصيل التي لا تصرف الانتباهَ عن الغرض الأصلي، وهي تفاصيل مقصودةٌ وموظَّفة بإحكام لمن تأملها. وإليكم بعضَ الأمثلة: تقليب أهل الكهف وهم نيام فيه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: ١٨].

أمر يعقوب لأبنائه أن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

مواعدة الله موسى ثلاثين ليلة ثم تممها أربعين بعشر ليالٍ أخرى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

يُستخدم في القرآن تعبيرٌ فريد وهو (قُلْ)، ومن المعلوم أن كلمة (قُلْ) لو حذفت من أي عبارة فإن معنى الكلام يبقى مستقيمًا تمامًا، لكنَّ وجودها في آيات عدة يؤكد أن محمدًا رسولٌ مسؤول عن نقل الرسالة بحذافيرها، وأن الأمرَ بنقل الرسالة بدءًا من (قل) هو من متن الرسالة ذاتها، بحيثُ لا يحق له أن يحذفَ حتى ما لا يخل بالمعنى. و(قُلْ) تؤكد علوَّ ذات الله، ونفي أي لبس بين ذاته العليَّة، وبين محمد

الذي يتنزَّل عليه القرآن وينقله إلى الناس.

ومما يدل على أصالة القرآن احتواؤه ردودًا على أسئلة المسلمين أو المشكِّكين من المعاصرين لنزوله، وهذا تكرر كثيرًا في القرآن. والأسلوب المستخدم في الردود هو ذاته أسلوب القرآن في غير الردود، مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

لم يُذكَر الله في القرآن على أنه محرِّك للأحداث فحسب، بل هو مؤثِّر في النفوس، وصانع للمشاعر. وهذا غيرُ واضح بالدرجة ذاتها في الكتاب المقدَّس، ولم يكن معنًى متداولًا لدى العرب.

ومن الأمثلة على هذا:

- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٤].

- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾ [الحجر: ٤٧].

- ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١].



- ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

في الناحية الحوارية يتميز القرآن من الكتاب المقدَّس تميُّزًا لافتًا، والحوار القرآني هو وسيلة لعرض الأفكار بلا إطالة، ولو كان القرآن مقتبسًا من الكتاب المقدس لورث ضعفَ بنية الحوار. وهناك كثير من الحوارات بين الأنبياء وأقوامهم تبين منطقَ النبيِّ ومنطق الأمم التي ترفض اتِّباعَ الأنبياء.

يخاطب الله نبيَّه محمدًا في القرآن في بعض الآيات، خطابًا مباشرًا، ليس فيه مثل: قال الله لي. ومن الأمثلة على هذا:

- ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦].

ولا تشعر هنا بأي حَيرة في تعيين المتكلم، هل هو الله أو النبي أو شخص آخر.

هناك صور قرآنية رائعة تَنطِقُ بالأصالة، بل يشعر معها



من يستمعُ إلى القرآن بأنه يعاين معاينة، لا يقرأ أو يسمع:

- مثال لصورة ساكنة: صورة مَهيبة لأهل الكهف؛ إذ يظنُّ الرائي أنهم أيقاظٌ في حين هم نيام من عقود طويلة: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: ١٨].

- مثال لصورة انتقال من السكون إلى الحركة: صورة اندفاع طوفان نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾[القمر: ١٠-١٣].

- مثال لصورة من الحركة إلى السكون: صورة انتهاء طوفان نوح: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هُود: ٤٤].

واعتقادي أن روعة الصورة تدلُّ على الأصالة، فرؤية الله لحدَثٍ ما، تختلف عن رؤية البشر، ففي الصور الثلاث لم يكن صاحب النص مشاهِدًا بل فاعلًا، فالله هو الذي قلَّب النائمين، وهو الذي أنزل الماء من السماء، وفجَّر العيون من الأرض، وهو الذي جعل الأرض تبلع الماء، والسماء تقلع،



وهو الذي أغاض الماء.

الإحكام والدقة في الحوادث التي يقصُّها القرآن، مقارنة بها في التوراة يدلُّ أيضًا على الأصالة.

هناك أمثلة كثيرة، منها:

- في التوراة ذُكرت آيةٌ من الآيات التي أعطيت لموسى، وهي: أن تتحول يده إلى برصاء كالثلج. في حين تُذكر هذه الآية في القرآن بعبارة: تخرج بيضاء من غير سوء. الآية واحدة في المصدرين، لكنَّ وصفَ الآية في التوراة يبدو بشريًّا، جعل الآية بصورة مرض جلدي. لكن في القرآن كان وصف الآية دقيقًا محكمًا ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]، وهو لائق أن يكونَ وصفَ الله للآية.

- ذُكر في التوراة أن سفينة نوح رست على جبل أرارات، وفي القرآن رست على جبل الجودي، والمسافة بينهما **٢٥٠** ميل، والحقيقة أن آثارَ السفينة وُجدت على جبل الجودي، فقد اكتشف علماء الآثار عام **١٩٥٩**م آثارًا لسفينة نوح على جبل الجودي، وقد زار أحدُهم واسمه (رون وايات) موقع السفينة في عام **١٩٧٧**م، وأكد أن هذا الموقعَ يرتفع زهاء **٦٣٠٠** قدم فوق سطح البحر، وعلى بعد نحو **٢٠٠** ميل من البحر.

- في التوراة أن أبناء يعقوب جاؤوا إلى مصرَ في سنوات قحط، وذلك بوساطة الحمير، في حين يحدِّد القرآن وسيلةً أخرى هي العِير أي القافلة التي تتكون من الإبل غالبًا. بطبيعة الحال هناك الكثير من المشاكل التي ستواجه حميرًا في سنوات قحط، هزيلة ومحملة ببضاعة، ومخططًا لها في العودة أن تحمل أرزاقًا ثقيلة، وأن تسير في دروب صحراوية ذهابًا وإيابًا مسافة ألفَي (٢٠٠٠) كم في مسار متعرِّج. إن استخدامها في هذه الظروف يكاد يكون مستحيلًا، لكنَّ الجمال مؤهَّلة لتحمُّل الجوع والعطش، ومؤهَّلة أكثر لحمل البضائع، ومؤهَّلة أيضًا للسير في الصحراء مسافات طويلة، كلُّ هذا يجعلني أعتقد صحةَ الوسيلة التي حددها القرآن.

ذكر القرآن أقوامًا غير مذكورين في التوراة، مثل عاد وثمود، وثبت علميًّا وجود تلك الأقوام. وذكر القرآن حوادثَ بعد عصر الإنجيل مثل قصة أهل الكهف، وحادث الأُخدود الذي قُتل فيه المسيحيون في نَجْران، وحادث الفيل. وهي كلُّها حوادثُ مؤكدة تاريخيًّا بالتواتر.

هذه بعض الملحوظات لا أكثر، على أصالة القرآن، وأنا أشعر بهذه الأصالة شعورًا يمسُّ أعماقي وعقلي، ولا أملك أدوات كافيةً للتعبير، لكنَّ من يعرف اللغة العربية، ولا

يسد أذنيه التعصب، سيعترف بأصالة القرآن ودقته وإحكام آياته.

ومع أن الأمر صار واضحًا لي، أن القرآن لا يعتمد على التوراة مصدرًا للمعلومة التاريخية أو للتشريع، أقول: لو كان القرآن من عند محمد، أو من عند عالم من علماء اليهودية أو المسيحية القدامى، للزم أن توضع فيه السِّيَر التي تثير عجب الناس حتى غير المتدينين، مثل سيرة إلياس المرويِّ عنه الكثير من المعجزات، فهو إلياس الذي أكلت النار قُربانه، ولم تأكل القربان باسم بعل، وهو الذي كانت الغِربان تأتيه بطعامه، وهو الذي أحيا الله على يديه ابن الأرملة التي استضافته، وهو الذي رُفع إلى السماء ولم يمت على الأرض.

ومن الطبيعي أن تلك المرويات وصل طرفٌ منها إلى الأمم التي يعيش بينها اليهود، والناس يستمعون إليها بسبب ميلهم الفطريِّ إلى الغرائب. ولو كان محمد أو مَن وراءه ينسج على منوال التوراة، لكانت سيرة إلياس أولى بالظهور في القرآن ومعها معجزاته. إلياس مكرَّم في القرآن، وإذا قلنا إن من المنطقيِّ أنَّ من يعرف إلياس يعرف معجزاته، فإنه من المنطقي جدًّا أنَّ من يعرف تنديدَ إلياس بعبادة البعل، يعرف موضوعَ النار التي أكلت قربانه، ولم تأكل قرابين الأنبياء

الكَذَبة التي قدموها لبعل.

لكن قصة القربان غير مذكورة في القرآن، مع أن فيها تنديدَ إلياس بعبادة قومه لبعل. ومن المنطقيِّ أن نقول: إن الإنسان الذي سيصطنع كتابًا دينيًّا لن يغفلَ عن ذكر قصة إلياس؛ لأنها تُشبع رغبات الناس في ميلهم إلى الغرائب. ومن المنطقي أن الإنسان يكتب في هذه الحالة كلَّ ما يعرف. لكن الله لا يورد لنا في التوراة أو غيرها كل ما عنده، ولا يدعي عاقل أن أسماء كلِّ الأنبياء مذكورة في التوراة؛ لأن هذا يعني أن الله لم يهتمَّ إلا بأمر بني إسرائيل، وتركَ الهنود والصينيين واليابانيين والكرد والعرب البائدة والهنود الحمر بلا أنبياء، بل لا يؤكد اليهود أن التوراة تضمُّ أسماء جميع أنبياء بني إسرائيل.

في القرآن لم يأمر الله الأنبياء إلا بكلِّ ما يليق به وبهم، ولم أجد أيَّ أمر شاذ يستحق رفعَ الحاجب، لكنَّ حاجبي يرتفع تلقائيًّا أحيانًا عندما أقرأ آيات في التوراة، لماذا؟

- في التوراة: «فقال الرب: كما مشى عبدي أشعيا معرًّى وحافيًا ثلاث سنوات آية وأعجوبة». هذا يعني أن الرب أمر نبيَّه أن يمشيَ حافيًا عُريانًا مدة ثلاث سنوات (فعل فاضح في الطريق العام)!.

- وهذه وجبة غريبة لحزقيال: «وتأكل كعكًا من الشعير، على الخرء الذي يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم»!.

- «أول ما كلم الرب هوشع، قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى»!. ولا تعليق!!.

من الواضح جدًّا أنها إضافات شعبية على القصص الديني، تسرَّبت على مدار القرون، ولا يمكن النظر إلى أوامر من هذا النوع على أنها من الله! وما حُكيت أخبار أنبياء بني إسرائيل إلا على أنها حكايات الشيوخ التي لم تخضع لأيِّ دراسة قبل إدراجها في النصوص.

ولديَّ تفسير ظريف يمكن فهمه من المثال الآتي: ففي القرآن أن موسى لما رجع إلى قومه من لقاء ربِّه، وعرف موضوعَ عبادتهم العجل، ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه متهمًا إياه بالضعف، فاعتذر هارون بأنهم كادوا يقتلونه، وخشي أن يقولَ له موسى: لقد فرَّقتَ بين بني إسرائيل ولم تنتظر كلامي. هذا مشهدٌ قابل للخلود؛ نبيٌّ يمسك بلحية أخيه النبي ورأسه؛ بسبب عبادة قومه لعجل، على مرأى من الجميع. مع مرور القرون لن يحكيَ الأجداد للأحفاد تفاصيلَ قصة صناعة العجل، ومن الذي صنعه؟. لكنَّ قصة تعنيف موسى لهارون بعد رجوعه من لقاء ربه، ستبقى في



الذاكرة، ولاشك أنه بعد جيل واحد أو جيلين سيُفهَم من ذلك أن هارونَ هو الذي صنع العِجل! هذه هي الطريقة البريئة والشعبية لتحريف الأحداث، ولا يُعقَل طبعًا أن يغرر نبي فاضل بقومه ويدعوهم إلى عبادة العجل! هنا يبدو القرآن نصًّا ملائمًا لتصحيح بعض القصص والأخبار غير المنطقية في التوراة، فقد أورد القرآن تفاصيلَ قصة صناعة العجل، ومن صنعه.





البُنوَّة

ذكرنا آنفًا أن للمسيح حالةً متميزة في القرآن، هو ووالدته السيدة مريم، والقرآن ينفي بُنوَّة عيسى لله نفيًا قاطعًا، ويجعل هذا القولَ موجبًا لغضب الله، يقول القرآن: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مَريَم: ٨٨-٩١].

وإليك مراجعة للبنوَّة لله في الكتاب المقدَّس:

- ففي نسب المسيح: «... ابن أنوش بن شيث بن آدم ابن الله».

- «إني صرت أبًا لإسرائيل، وأبراهام هو بكري».

- «قال الرب لموسى: تقول لفرعونَ: هكذا يقول الربُّ: إسرائيل ابني البكري. أطلق ابني ليعبدني».

- وعن (ملكي صادق) تقول التوراة: «والوحي لا يذكر له أبًا ولا أمًّا ولا نسبًا، كما لا يذكر عن ولادته أو موته شيئًا، وذلك لكي يصح اعتباره رمزًا لابن الله».

- «وجدت عبدي داود بدهن قدسي مسحته. هو يدعوني: أبي أنت إلهي وصخرة خلاصي».

- «قال داود لسليمان: كان إليَّ كلام الرب قائلًا: هو ذا يولد لك ابن، اسمه سليمان، هو يبني بيتًا لاسمي وهو يكون لي ابنًا وأنا له أبًا».

- أشعياء يقول: «إنك أنت أبونا، أنت يا رب أبونا».

- وفي المزامير: «وآلهة قلت لكم وبنو العلي كلكم».

هذه النصوص تجعل حال السيد المسيح كحال آدم وإبراهيم وداود وغيرهم، بل وكل المؤمنين من بني إسرائيل. والنصوصُ التي توحي بتلك البُنوَّة في علاقة المسيح بالله، لا تمتاز عن النصوص السابقة، فعلى أي مستَنَدٍ نقرِّر أنها بالنسبة لغير المسيح مجاز، وبالنسبة للمسيح حقيقة؟!.

وما معنى أنها بُنوَّة حقيقية، إذا كنا لا نعرف البنوَّة الحقيقية إلا البيولوجية التي يُنكرها المسيحيون؟. فإذا لم تكن البنوَّة بيولوجية، ولم تكن مجازية، فماذا تكون؟.

البنوَّة عندي تشير إلى أمر مهم وضروري، ودونه تنتفي البنوَّة، وهو أنه لا يمكن أن يكونَ الابن في قِدَم الأب، وبهذا يستحيل أن يكونَ المسيح أزليًّا. وإذا قلنا: هو أزلي مثل أبيه الأزلي، لما كانا أبًا وابنًا بل توءَمَين!. خصوصًا إذا كنا نرى الابن كاملًا مستقلًّا أزليًّا لا ينقص عن الأب شيئًا، فلو كان ينقص عن أبيه شيئًا، لتسويغ معنى البنوَّة، لَما صار إلهًا.

يقول بولس في الرسالة الثانية -مع أنه الزارع لكلِّ الألغام الفلسفية في الديانة المسيحية-: «وإنه، لا إله غير الله وحدَه، وإن كانت أشياء مما في السماوات والأرض تسمَّى آلهة، وكما توجد آلهة كثيرة وأرباب كثيرة، فإن لنا نحن إلهًا واحدًا».

نستطيع أن نقول: إن الأمم الماضية كان عندها تداخلٌ في استخدام التعبيرات الآتية: الألوهية، والربوبية، والأبوَّة، والبنوَّة. فكلمة (الرب) كانت تطلق على: المعلِّم، والمالك، والقائد، والزوج، وصاحب البستان. وكان للترجمة من اللغات القديمة أثرٌ في الذين يقرؤون باللغات الحديثة؛ إذ جرى اعتبار الكلمات بمدلولها الظاهريِّ المباشر، في حين كان الأقدمون يرون البنوَّة هي العبودية لله.

أنا أفهم قول المسيح في عظة الجبل: «طوبى لصانعي السلام لأنهم يُدعَون أبناء الله»، أفهم البنوَّة فيه على أنها مجاز، تعبيرًا عن القربى والكرامة والقَبول، ولا أتخيَّل أن كل من حصل على جائزة نوبل للسلام يستحقُّ العبادة على أنه ابنٌ لله!.

وإن المسيح وسَّع معنى الأبوَّة لتشملَ الذين لا يغفرون للناس زلَّاتهم: «وإن لم تغفروا للناس زلَّاتهم لا يغفر لكم

أبوكم زلَّاتكم».

ولما كانت الأديان السماوية الثلاثة تسمِّي إبراهيم (خليل الرحمن)، فإن إبراهيم أولى بالأزليَّة من عيسى، فعادةً ما يكون الخُلَّان متقاربين في العمر، أو على الأقل يكون عمرُ خليل أي شخص أكبرَ من عمر ابنه. أو أن الأمر لا يعدو أن يكونَ مجازًا سواء في البنوَّة أو الخُلَّة.

ما يثير عجبي هو أن كثيرًا من الأُسَر الصينية تعاني منعَها من إنجاب أكثر من طفل واحد. فلماذا يقيِّد الله نفسه بقوانين صينية، وهو صاحب الإرادة الكاملة؟

إن الله ليس صينيًّا، وليس بشرًا أصلًا، ونحن بالظن نُلحِق به ما هو للبشر.

وجماعات الدفاع عن حقوق المرأة، لماذا لا تَعُدُّ ظلمًا أبوَّة الله للمسيح، دون أن يكون أبًا لأنثى! أليس هذا مدعاةً لإحساس الرجال بالتفوُّق على النساء، تفوُّق تدعمه عقيدةٌ لا تشريع. وسيصرخ رجل: ماذا تقولين، وهل هناك آلهة تحيض؟! وسأرد: وهل هناك آلهة تأكل وتنام وتُحدِث؟!.

يؤمن المسيحيون أن السيد المسيح جاء ليخلِّص البشر، وهذا جيد، ولكنهم يؤمنون بوجود جانٍّ يعيشون معنا، مؤمنين وكافرين، فمن سيخلِّص الجانَّ؟. هل هو المسيح



أيضًا؟. ليس في الكتاب المقدَّس ما يجيب عن هذا السؤال. وليس لدى الجانِّ ذنب متوارَث عن الأب الأول!. إذًا هم أولى بأن يكون لهم أقنومٌ ممثَّلٌ في الله، ابنٌ لله من الجانِّ. يكون الأقنوم الرابع.

أنا غير مقتنعة بأن بُنوَّة عيسى لله بنوَّة حقيقية وليست مجازًا، وحسبنا أن يكونَ المسيح رسولًا عظيمًا. ليس لدينا نصٌّ عن المسيح يقول فيه: إن الله يتكون من ثلاثة أقانيم وأنا أحدها. والتوراة لا تُسعف بذلك. طبعًا لو نزل المسيح ودخل كنيسةً وسأل الجمهور: من أنا في نظركم؟ وتأمَّل في الناس. سيقولون: أنت الربُّ، ابن الله.

لما سأل عيسى تلاميذَه، ماذا يقول الناس عنه؟ حصروا له الإجابات في الآتي: يوحنا، إيليا، النبي. وسألهم عن إجابتهم هم فقالوا: أنت المسيح. هذا في إنجيل (مرقس). لكن في إنجيل (متَّى) -طبعًا إنجيل مرقس أقدم من إنجيل متَّى- جاءت الإجابة: أنت المسيح ابن الله الحي. لكن حتى هذه العبارة التي أضيفت، لا تزيد عمَّا هو واردٌ في التوراة من بُنوَّة الأنبياء لله. وما دامت الإجابة لم تكن: (أنت المسيح، الأقنوم الثاني من الله) فالأمر يستحقُّ المراجعة!

الدائرة الضيِّقة حول المسيح هي لأتباعه المخلصين،

وهي التي من المفترَض أن يصرِّح لها في مناسبات عدة بطريقة واضحة عن هُويَّته اللاهوتية؛ إذ هذا محورُ العقيدة، وبعبارات لاتقبل التأويل مثل قوله: «أنا إله، حللت برَحِم مريم، وتجسَّدت إنسانًا كاملًا، كما أنا إله كامل، جاء إلى الأرض ليُصلَب ليكفِّرَ عن خطيئة آدم».

والمسيح سمَّى نفسه عدة مرات (ابن الإنسان) مثل: «وأما ابن الإنسان فليس له أن يسندَ رأسه»، وهذا الاسم ربما اختاره حتى يدفعَ اللبس عن عقول البشر، ولذا ارتضى أن يقال له ابن داود، وابن يوسف، ولم نسمع أحدهم يناديه بهذا اللفظ الفلسفيِّ الجاف: يا أقنوم الله الثاني. ولم يُستخدَم هذا اللقب في الأناجيل ولو مرة واحدة، كأن يقال: (فقال له أقنوم الابن: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار)!





كانا يأكلان الطعام

يقول القرآن عن المسيح ومريم: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥] إنها إشارة لاحتياجهما إلى الطعام مثل سائر البشر، ودليل على نفي الألوهية عنهما. ولو كان الذي يريد أن ينفيَ الألوهية عن المسيح بشرًا، لاسترسل في ذِكر الغرائز والأفعال التي كان يقوم بها المسيح وتنافي الألوهية؛ ومنها أكل الطعام، وما يترتب على أكل الطعام... إلخ. أي لو كان هذا النصُّ من عند محمد، وافترضنا أنه مستاء ويشعر بحَنَق شخصيٍّ تجاه الألوهية التي يفترضها الناس في المسيح، ما كان ليستخدمَ هذا التعبير اللطيف، إذ لا يبدو أن من صاغه يشعر بنقمة على المسيح ذاته، ولكن يشعر بنقمة على من وصفوه بالألوهية، وهذه النقمة لم تُفقده لطفه فينالَ من المسيح ويحطَّ من صورته. لقد ترك النص للبيب أن يفهمَ بالإشارة: أن أكل الطعام يترتب عليه وظائفُ بيولوجية لاحقة.

ونحن نقول دائمًا: وما المشكلة في أن يكونَ المسيح ابنَ الله الذي يأكل الطعام؟.

وسأحاول الإجابة عن السؤال بتحليل الموضوع:



من الناحية الجمالية؛ نجد أن الإنسان المهذَّب عندما يأكل مع جماعة من الناس يَحرِصُ على تناول طعامه وشرابه بطريقة راقية؛ لأنه كلما تخلَّى عنها اقترب من طريقة الحَيَوان في الأكل؛ إذ تناولُ الطعام غريزة مشتركة بيننا وبين الحَيَوانات، لكننا نمارسُها بطريقة مختلفة تليق بإنسانيتنا. ومن الناس من يرفض تناول الطعام مع الغرباء، ولكن يمكن أن يشاهدوا فلمًا تلفازيًّا معهم، فلماذا يكون تناولُ الطعام هو آخرَ ما يحدث عندما تنتقل علاقتنا مع الآخرين إلى طَور التلقائية؟ ولماذا يأبى كثير من الناس أن تُلتقَط لهم صور ضوئية (فوتوغرافية) وهم يتناولون الطعام؟. ولماذا تمتنع الفتيات الجميلات عن أكل الشطائر في الشارع؟.

يبدو أن تناول الطعام في حد ذاته يتنافى مع الجمال، فما بالنا بالجمال المطلق الذي ينبغي أن يكون لله؟ ولعل من شدة حِرص الرسامين على إبراز المسيح في صور جمالية حتى يُعبد، أنهم لم يرسموا له صورةً وهو يعمل بالنِّجارة، ولا صورة وهو يغسل أقدام تلاميذه؛ لأن الجمالَ في اللوحة يساعد على إرساخ صورة ذهنية جيدة ومحببة.

الطعام مهمٌّ لحياة الإنسان وليس زينة تكميلية يمكن الاستغناء عنها، فهو يصوغنا تمامًا، جسدًا وعقلًا ونفسًا. الرياضيُّ له نوع خاصٌّ من الطعام، وصاحب الحِميَة له

صِنف آخر، والطبيب يوصينا بأنواع ويمنعنا عن أنواع، ومستوى ذكاء الإنسان ودرجة تركيزه قد تتغيَّر بتغيُّر طعامه، وكذلك نضارة الوجه، وباختصار يمكننا القول: إن الطعامَ يطبخنا كما نطبخه.

أما الجوعُ فمعظم الناس لم يجرِّب الشعور القوي به، حيث تظهر الحاجة إلى الطعام والشراب علامةً على الضعف الإنساني، وانعدام الكمال. ما يميز الإنسان عن الحَيَوان ميزتان هما: الكرامة الإنسانية، والعقل الإنساني. وإذا ما احتُجِز إنسان كريم النفس، وصاحب ذكاء عالٍ، زمنًا بلا طعام ولا شراب، ثم تكلمنا معه، فسنلحَظ انخفاض درجة تركيزه وقدرته على التواصل مع الآخرين، ولن يستطيعَ التفكير بمستواه الطبيعيِّ ذاته، أي أن العقل الإنسانيَّ المميز غاب بسبب غياب الطعام، وبدا الرجل الذكي كائنًا ساذجًا لا يفكر إلا في الوجبة التي يتشوَّق إليها. وإذا أطلقنا سراحه بعد أن أخلينا جيوبه من المال، فإنه إما أن يتسوَّل طعامًا وشرابًا، أو يسرقهما، وبذا غابت النفس الكريمة!

بشيء من الجوع والعطش القاسيين يفقد الإنسان جزءًا مهمًّا من إنسانيته. وإذا اشتدَّ به الجوع والعطش، فإنه على استعداد أن يأكلَ لحم إنسان ميت! وأن يشرب البول! وإذا استمرَّ الوضع بلا طعام ولا شراب، يموت الإنسان حتمًا،

وهذا ينافي الكمال.

ما بعد الطعام:

في العصر الحالي يقضي الإنسانُ حاجته في مكان خاص، ويستخدم وسائلَ عدة لإزالة آثار قضاء الحاجة. والرجل يغلق باب دورة المياه عليه، حتى لو لم يكن في البيت سوى زوجته، وكذلك تفعل زوجته.

لو تخيَّلنا أن هناك شخصًا ما صوِّر وهو يقضي حاجته في الخلاء، آمنًا مطمئنًّا، وصوِّر أيضًا وهو يشرب الخمر، ثم عُرضت عليه مجموعتا الصور، وجرت مساومته على إحداهما بالمال. غالبًا سيختار الحصولَ على صور قضاء الحاجة، مع أن شربَ الخمر حرام، في حين قضاء الحاجة أمر طبيعي فطري. هنا سيتغلَّب على الإنسان إحساسُه بقبح ما هو طبيعي، على إحساسه بقبح ما هو حرام.

الله لا يليق به أي صفة أو إرادة تنافي ما يتصفُ به من الجمال والكمال المطلقَين.

ونحن البشر لا نرى عيبًا في أن تكونَ لدينا تلك الاحتياجات، لكن العيب أن نتخيَّل أن الله مثلنا، حتى في الوظائف الحيوية.

في بعض الديانات يُنظَر إلى الشخص الذي يستطيع أن يعيشَ بلا غذاء زمنًا طويلًا على أنه قديس، وليس إلهًا. وكان من أسباب فتنة المصريين بفرعون موسى أنه كان لا يحتاج إلى قضاء الحاجة إلا في أوقات متباعدة جدًّا؛ لذا حسِبوا أن فيه شيئًا إلهيًّا.

أما السيد المسيح فقد رضع منذ الطفولة، واستمرَّ طيلة حياته يأكل ويشرب، بل هو موصوف في الأناجيل بأنه أكول، إذا ما قورن بيوحنا المعمدان.

وقد يكون في الدليل الذي قدَّمه القرآن فائدة أخرى، وهي أن الله -لئلا يلتبسَ الأمر على البشر- لم يعطِ حتى لأفضل خلقه وهُم الرسل، ميزةَ عدم الاحتياج إلى الطعام، مهما كان مستوى المعجزات التي أجراها على أيديهم. يقول الإنجيل: «جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب. فيقولون: هو ذا إنسان أكول وشِرِّيب خمر».

لكن القرآن بديع الأسرار، كما استخدم ظاهرة تناول المسيح ومريم الطعامَ دلالةً على انتفاء الألوهية عنهما بأسلوب لطيف لا فظاظة فيه، فإنه استخدم ظاهرةَ تناول الطعام لبيان قدرهما عند الله أيضًا، كيف؟.

يقول القرآن عن مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا

نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧]. فقد كان الله يرزقها الطعام، ويعطيها الفواكه في غير أوانها! وهذا كان يثيرُ عجب النبيِّ زكريا.

وعن عيسى يقول: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤]. ونزلت مائدةٌ من السماء على مرأى الجميع؛ استجابةً لدعاء عيسى، وموافقة لطلب الحواريِّين، وشاع أمرها، وآمن بسببها كثيرون.

ما أعظم شأنَ المسيح والسيدة مريم في القرآن، على أنهما بشر.



هل القرآن معجزة؟

سمعت كثيرًا وصفَ المسلمين للقرآن بأنه معجزة، وأنا سأحاول في هذا الفصل الوقوفَ على الحقيقة. لا شك أنه قد أصبح لديَّ الآن حصيلة مقبولةٌ من المعلومات، لكن من الضروريِّ القراءة مرة أخرى بغرض الإجابة عن هذا السؤال المهم. وقد قرأت القرآن قبل البدء بكتابة هذا الموضوع، ولا أخفي إعجابي بأسلوبه، ولا أخفي أن هناك تلاوات سمعتُها لقرَّاء القرآن هزت كِياني!.

يبدو القرآن المعجزةَ الرئيسة التي أيَّد الله بها محمدًا، مع معجزات أخرى دونه في الأهمية والمنزلة، لكن لماذا؟ وهل تصلح الكلمة لأن تكونَ معجزة؟.

إذا كان الغرض من المعجزات التي أيَّد الله بها الأنبياء هو تصديق الرسل وحصول الإيمان، فلا مانع منطقيًّا من أن يكونَ كلام الله هو المعجزةَ التي أيَّد الله بها نبيَّه محمدًا، لما للقرآن من الأثر البالغ في حياة المسلمين، وحدث به الإيمان بمحمد ورسالته، وبجميع الأنبياء السابقين.

إن المسلمين جميعًا آمنوا بمعجزات المسيح بوساطة القرآن، في حين من شاهدوا هذه المعجزات عِيانًا لم يؤمنوا جميعًا بنبوَّته. المعجزات المادية لها أثرٌ بالغ في الجيل

المعاصر لها، ثم يتلاشى التأثير أو ينعدم، حتى لو كانت آثار المعجزة باقية. فمثلًا في مصر نجد بحيرة قارون، التي ظهرت في المكان الذي كان فيه قصر قارون المتكبِّر وأملاكه. وكان قارون من قوم موسى، لكنه كان متَّبعًا فرعون، وكان يمتلك ثروةً طائلة (مليارديز بلغة العصر)، وخسف الله به وبملكه وبقصره الأرض، وظهرت البحيرةُ مكان أملاكه. الواقع الآنَ أن الناس يذهبون لصيد البطِّ والسمك، والسباحة في تلك البحيرة، وليس فيهم من يعتبر بما جرى لقارون!.

لكن القرآن ما يزال له الأثرُ العميق في حياة المسلمين. حتى أنا عندما أسمعه أشعر بالخشوع، وتنساب دموعي أحيانًا! لكنَّ إثبات الإعجاز لنصٍّ ما، أمرٌ صعب، لأنها قضية تتصل بالتذوُّق.

نعم، من الممكن أن يقول شخص ما إنه يستمتع بقراءة أعمال أغاثا كريستي أكثر مما يستمتع بقراءة أعمال شكسبير. ولكن الأمر ليس بهذا اليُسر، بدليل أننا لو سألنا المتخصِّصين من أكاديميين وأساتذة أدب، فلن يرفعَ أحد منهم تقريبًا أدب أغاثا كريستي على أدب شكسبير. وتكفي شهادة الكفار المعاصرين لمحمد، الذين بلغوا أعلى مراتب الفصاحة والبيان، بأن هذا القرآن نصٌّ ساحر.

إن زعماء الكفر في زمن محمد عاندوا واستكبروا وأَبَوا الإسلام، واتهموا محمدًا بشتَّى التهم، لكن أحدًا منهم لم يقُل: إن هذا القرآنَ كلام عاديٌّ وبمقدور أي شخص أن يأتيَ بمثله. بل اتفقوا جميعًا على أن هذا الكلام نمطٌ فذٌّ من الكلام، وحاروا بشأنه كل الحَيرة، وما حال بينهم وبين الإذعان له سوى استكبارهم وإصرارهم على التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد من باطل. وحسبنا ذاك الكافر الذي سمع القرآن يُتلى فخرَّ ساجدًّا، فلما تعجَّب القوم مما فعل قال: إنما سجدت لفصاحته!.

إن تفرد النصِّ لا يقاس بمدى تأثيره في القارئ فقط، بل يُقاس بالإعجاز أيضًا. بمعنى: هل هناك من يستطيع أن يأتيَ بمثله؟ والقرآن نفسُه يتحداهم، ونزل في التحدي إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك! وبرغم جدِّية التحدي لم يختاروا لجنةَ خبراء من أجل صياغة سورة واحدة أو آية، ولم يَشرعوا حتى في محاولة فاشلة! ولكن لماذا لم يحاولوا؟. والجواب لأنهم على دراية تامَّة باللغة العربية وأساليب الفصحاء في البيان، وهم على يقين أن بيان القرآن سماء لا تُطال، وأفقٌ رحب لا يُدرَك!.

وما زال التحدي قائمًا حتى الآن، وسيبقى إلى يوم القيامة، لكن لا يستطيع أيُّ موهوب مهما كان شأنه، أن

يدعيَ أن في معاصريه، أو فيمن سيأتون بعده، من يستطيع أن يأتيَ بمثل إبداع القرآن.

وفي القرآن آيةٌ تفيد أن الله يسَّر حفظَ القرآن لمن رغب في ذلك: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر: ١٧]. وهذا حقًّا أمرٌ معجز؛ أن يكونَ نصٌّ فيه وعدٌ من الله بتسهيل الحفظ! وهذه الآية مكية، أي أنها نزلت في العهد الأول للإسلام، قبل أن يكتملَ نزول القرآن ليُعرَف إذا ما كان سهلَ الحفظ أم لا.

والواقع فعلًا أنه لا وجهَ للمقارنة بين عدد المسلمين الذين يحفظون القرآن، وعدد المسيحيين الذين يحفظون الإنجيل، إذ نرى الواعظَ لا يكاد يقرأ خمسَ آيات متتابعة من الإنجيل دون أن يطالعَ الصفحة، في حين ملايينُ المسلمين يحفظون أجزاء كاملة من القرآن، وآلافٌ منهم يحفظونه كاملًا تامًّا، ومنهم أطفالٌ دون العاشرة!.

هناك نوعان من النصوص وردت عن النبيِّ محمد: القرآن، وأحاديثه هو، التي تمثل كلماته وأقواله. وثمة فرقٌ واضح بين الأسلوبين. أنا قمت باختبار يسير، كتبتُ أربع آيات قرآنية، كل آية في وريقة، ومثلها من الأحاديث النبوية، ووضعتها في حقيبتي، ثم مضيتُ بها إلى متنزَّه عام، وهناك

اخترتُ طفلًا صغيرًا مسلمًا في العاشرة من عمره، وطلبت منه أن يفرزَ الآيات عن الأحاديث. وفرزها فرزًا صحيحًا! فسألته إن كان يحفظها من قبل، فنفى ذلك، وسألته: كيف إذًا استطعتَ أن تفرزَها على الصواب؟ فقال بعد تفكير عميق: لا أعرف! ابتسمتُ لأنه أجاب الإجابة المدهشة، فأنا أيضًا لا أعرف.

وهذا ما ينفي أن يكونَ القرآن من عند محمد؛ إذ لا يمكن عمليًّا أن يستمرَّ شخص ما في إنتاج نصوص كثيرة بأسلوبين مختلفين متباينين، مدة ثلاثة وعشرين عامًا، دون أن يحدثَ تداخل أو تشابه بين الأسلوبين! علمًا أن هذا الشخصَ لا يعيش في بُرج عاجيٍّ متفرغًا لإبداعه، بل يعيش حياةً حافلة بالأحداث والمشاقِّ والأعباء الثقيلة. على أن أسلوب محمد في أحاديثه النبوية أسلوب بليغ وفصيح وراق، ولو قلنا: إنه ربما كان يتهاون في صياغة الحديث، في حين يبذل الجهد في تنقيح القرآن وإحكام صياغته، لكان الردُّ على ذلك: بأن البلاغة متأصِّلة في الأحاديث أيضًا، ولكنهما نمطان مختلفان.

عندما نتحدث عن أثر القرآن العميق في نفوس سامعيه، فإننا نلاحظ أن القرآن مقيَّد بما لا تُقيَّد به الكتابة الإنسانية، فلا مجال فيه للكذب والتهويل. أما في الكتابات البشرية

التي يبتغي فيها الشاعر أو الكاتب إحداثَ أكبر أثر نفسي في القُرَّاء أو المستمعين، فإنه لن يتحرَّى الصدق؛ إذ الصدق يقيِّد قدرته على التأثير، لذا كانت الملاحم أعظمَ ما أنتجته العبقرية البشرية بما اشتملت عليه من مبالغات شديدة.

أما القرآن ذو البيان المؤثِّر والمعجز، فلا يحكي لنا عن غرائب وعجائب ومبالغات. ثم إن ما يتضمنه من مواضيعَ تشريعية عن الحرب والمواريث والزواج والطلاق، يُفترَض أن يُضعفَ من تأثيره؛ لأننا لم نسمع عن أي نشرة قانونية أكثر من أنها: مانعة جامعة تفسِّر نفسها. ولم نسمع عن صياغة قوانين بأسلوب يضاهي (أوديب ملكًا) لسوفوكليس.

لقد حافظ القرآن على قمَّة البلاغة وذروة الفصاحة مع تضمُّنه أحكامًا تشريعية كثيرة، ومع ما امتاز به من صدق واستقامة.

وهناك التحدي الأكبر، وهو أن القرآن نفسَه فيه وعدٌ من الله بالحفظ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]. فهو لم يتغيَّر ولم يتبدَّل منذ نزل على محمد، وما يزال محفوظًا كما هو حتى يومنا هذا!.

وهذا ليس سهلًا التنبُّؤ به، وقد نزلت الآية المذكورة في العهد المكي (مرحلة الاستضعاف) التي -من الناحية البشرية



البحتة- لا يستطيع أن يضمنَ محمد فيها شيئًا، فضلًا عن ضمان ألا يشوبَ القرآنَ شائبةٌ من تغيير أو تحريف. فمن الذي يضمن بقاء كتاب ما سالمًا محفوظًا، والواقع المشاهد يقرِّر أن مئات الكتب في أصقاع المعمورة، قد ضاعت أصولها ولم نعد نعرف إلا اسمها فقط، وكثير من الكتب انتهت إلينا ناقصةَ الأجزاء أو مخرومةَ الصفحات.. إذن احتمال ضياع كتاب ما وارد جدًّا، واحتمال فقدان جزء من كتاب وارد أيضًا، واحتمال وقوع اختلاف وتباين بين نسختين يكاد يكون القاعدة عند مقابلة الأصول الخطيَّة لأي كتاب! ولكن شيئًا من هذا لم يحدث مع كتاب واحد فقط، وصل إلينا من زمان غابر، بألفاظه وحروفه دون أدنى تغيير وهو القرآن الكريم، وهذا بلا ريب معجزة عظيمة.

لو كان لدى المسلمين قرآنان مختلفان في آية واحدة، لقلنا: انتهى الإسلام، فهل هناك تحدٍّ أكبر من هذا؟!. وهل لدينا في المسيحية عالم دين عقلاني، منصف وصادق وغير متعصب، يجرؤ أن يقولَ: إن الأمر لدينا كذلك؟!. إن في الغرب أصحابَ رؤًى نقدية يستطيعون أن يَرَوا الحقيقة كما هي، ولا أحد هناك يصادر التفكيرَ الحر.

ولم يبقَ إلا أن أشيرَ إلى أن القرآن حوى نبوءات كثيرة قد تحقَّقت، وهو يشتمل على الكثير من المعارف العلمية



التي لم تكن متاحةً للبشر في عصر نزول القرآن، وسأسجِّل خواطري بشأن هاتين الفكرتين بعد التأمُّل فيهما وإعمال العقل.





الحضارة

لاشك أن العالم الإسلاميَّ يعيش حاليًّا أزمة عميقة، ناتجة عن اهتمام المسلمين بالعبادات والأحكام، أكثر من اهتمامهم بمواضيعَ أخرى مهمَّة في القرآن والسنة، كفيلة بتنظيم الحياة، وتنظيم علاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الإنسان بالكون. ولا ننكر أثرَ الحصار المفروض -منذ الحروب الصليبيَّة- على العالم الإسلامي، إذ له أثر بيِّن في تأخُّر المسلمين. والآن يبدو العالم الإسلاميُّ مثل صقر مقيَّد بقيود محكمة.

لقد جَرَّبت أمم كثيرة أن تقيِّد أممًا دونها في القوة والتقدم، وحصل هذا لأمة الإسلام إذ تكالبت عليها أممٌ أخرى بغرض تكبيلها، وتحطيم قدراتها وإرادتها، ولا شك أن المسلمين استعصَوا دهرًا طويلًا على التكبيل والخضوع. وليس من الضروري أن يكون المكبِّل المسيطر هو الأرقى حضاريًّا، ولنا في التتار خيرُ نموذج؛ إذ تمكنوا من كسر إرادة الشعوب بلا غطاء حضاري.

أما المسلمون في إبَّان ازدهار حضارتهم فقد نهضوا بالعلوم التجريبية، وألَّفوا في الطب والكيمياء والرياضيات، واكتشفوا الاكتشافات، وسبقوا شعوب العالم في جميع

ميادين العلوم. وبَنَوا القصور والمدنَ الحديثة في جزء من أوربة هو الأندلس، وجرَّبوا كيف تمنح الدهشة الحضارية قوةَ دفع لأفكارهم، وتَحمِلُ الآخرين على ترجمة أعمالهم والتتلمذ على أيديهم.

ومهما يكن من أمر، فإن التاريخ يتضمَّن خدعة كبرى، وهي ما يُشاع من أن الدول المتقدمة تضخُّ دماء الحياة في الأمم المتأخِّرة، دون النظر إلى النية والأهداف البعيدة. أي أن الاحتلال العسكريَّ التقليدي، والعولمة، يمنحان شِحنات من الكهرباء اللازمة لتحريك عضلات الأمم المتأخِّرة.

لكن لماذا ظلَّ العداء بين العالم الغربي والعالم الإسلاميِّ قصةَ كل الأجيال؟. منذ دخول المسلمين شبهَ الجزيرة الأيبيرية حتى الآن.

إننا نلاحظ ما جرَّته الحربان العالميتان من قتل وتدمير، ومن تأجُّج العداوة بين دول العالم الغربيِّ، ولكن هذه العداوةَ والأحقاد لم تلبث أن هدأت، وانقلبت اليوم إلى تعاون واتحاد أوربي، في حين استمرَّت العداوة التاريخية بين المسلمين والغرب، وتوارثتها الأجيال خلفًا عن سلف! ويطالعنا بين حين وآخر تصريحات لقادة الغرب ومفكريهم تنطلق من قناعة مفادها: الإسلام هو العدوُّ الحقيقي

للحضارة الغربية!.

أنا طبعًا غير مؤهَّلة لصوغ نظريات، لكنني أتوقَّع أن يتكرر نموذج التتار بأدوات جديدة، ليس فيها السيوف والحراب، بمعدلات نموٍّ مرتفعة، وقدرة على غزو الأسواق بمنتجات رخيصة. وفي حين ينشغل الغرب بعدوِّه اللدود الإسلام، سيَخطَفُ التتريُّ الجديد شُعلة الحضارة. والاستعدادات قائمةٌ على قدم وساق، وها هم أبناؤهم يحصلون في الرياضيات على درجات أعلى من أطفال الغربيين، ومبرمجو الحواسيب انتزعوا الوظائفَ أيضًا من شباب الغرب، والبقية تأتي، ويساعدهم في بسط النفوذ الابتساماتُ العذبة المرسومة على الشفاه، فالآسيويون مهذَّبون بالفطرة. أجل ربما يفعلها هؤلاء الذين لا يعرفون أيَّ شيء عن المسيح، ولا يريدون أن يعرفوا، ولا يهمُّهم تاريخ الحروب الصليبية.

وعندما يتصل الأمر بالخلاف مع العالم الإسلامي، يروق لبعض الناس وصفُ الحضارة الغربية بأنها حضارة مسيحية. وبذلك يضعون الانتصارات الباهرةَ التي حقَّقتها الحضارة الغربية في المجالات المختَلِفَة، في كِفَّة الدين المسيحي، وبذا يسهل إصدار حكم بأن المسيحيةَ أفضل من الإسلام!

أنا شخصيًّا لا أرى أيَّ تشابه بين تعاليم المسيح والحضارة الغربية، بل إن المسيحَ رجل شرقي، لم يُبدِ اهتمامًا بأوربة في حياته، ولو كانت الحضارةُ الغربية تطبِّق تعاليم المسيح في السماحة مثل: «من ضربك على خدِّك الأيمن فأدر له خدَّك الأيسر»؛ لربما احتلَّت مصرُ بريطانيا، واحتلَّت الجزائرُ فرنسا!

تعاليم المسيح كانت روحيَّة، ومن أجل الراغبين في الخلاص، وليست لمن أراد إقامةَ حضارة. وهي بهذا تنفع آحاد الناس، ولا تنفع شعوبَ دول. إن دعوة المسيح كانت من أجل نفخ الروح في التعاليم اليهودية التي قتلها محتكرو الدين. ولم تكن التعاليمُ المسيحية صالحةً لأن تكونَ منطلقًا لأي برنامج تنموي، أو أي مشروع حضاري.

ومن الحسن أن نتوقَّفَ في بعض المحطات لإجراء موازنات سريعة في بعض أحكام الشرائع السماوية، جديرة بالتأمُّل والنظر:

- في شريعة موسى هناك طلاق، وعند عيسى لا طلاق، وعند محمد هناك طلاق لكنه غير مستحب.

- في شريعة موسى لا مشكلة في الثراء، وعند عيسى: «لئن يدخل الجمل في سَمِّ الخِياط أيسر من أن يدخلَ الغنيُّ

ملكوت السموات»، وعند محمد لا مشكلة في الثراء، لكنْ هناك حقٌّ معلوم للفقراء في أموال الأثرياء، فضلًا عن كثير من الوصايا التي تحضُّ على التكافل والصدقة. وأنا لا أدري بماذا سيشعر بيل غيتس -وهو نموذج حضاريٌّ رائع- عندما يقرأ تلك الآية الإنجيلية السابقة!

- في شريعة موسى القِصاص، وعند عيسى العفو، وعند محمد القِصاص، ولكن مع الحثِّ على العفو فهو خير.

لا شك عندي في روحانية تعاليم المسيح، لكنَّ ادعاء أنها تشكل العصبَ في الحضارة الغربية، لا يعدو أن يكون حديثًا رومانسيًّا، سابحًا في الخيال بعيدًا عن الواقع.

ولا شك عندي أن التعاليم الإسلامية قائمةٌ على التوازن بين الحاجات المادية والحاجات الروحية، ولاشك أن المسلمين اليوم متأخِّرون كثيرًا؛ لأسباب عديدة. لكن من الملاحَظ أيضًا، باعتبار أن الحضارةَ في النهاية لصالح الإنسان وسعادته، أن أقلَّ نسبة انتحار في العالم هي في بلدان العالم الإسلامي، وكذلك أقل نسبة إصابة بالإيدز، وأقل نسبة إدمان كحول، وأقل نسبة أطفال غير شرعيين... إلخ.

ربطُ الحضارات بالحالة الدينية قد ينطوي على خداع؛

بغرض التقليل من شأن الآخر. وبالمثل يستطيع المسلمون أن يقولوا: إن اليونان كانت دولةً عظمى أيام الوثنية، وتدحرج بها الحال بعد تحوُّل شعبها إلى المسيحية، فأصبحت ولايةً تركية. ويستطيع المسلمون أن يدافعوا عن نموذجهم بأنهم عندما حقَّقوا نهضتَهم الحضارية انطلقوا من لا شيء ماديًّا، ومن لا موروث ثقافيًّا. غير أني أومن بأن هناك مجالًا للتعايش، خصوصًا أن الإسلام هو الدينُ الوحيد -غير المسيحيَّة- الذي يعترف بنبوَّة المسيح وصدق رسالته، وبعظمة أمِّه السيدة مريم. ولا أكون مجحفةً إذا قلت: إن كلَّ أبناء الأديان الأخرى على وجه الأرض، باستثناء المسلمين، لا يصدقون حكاية أن المسيح وُلِد من غير أب بشري، ويتبنَّون البذاءة التي افتراها اليهود عند ميلاد المسيح!

إن القرآن يُعَدُّ بحق وثيقةَ تكريم للمسيح وأمه، ووثيقة براءة للعَذراء، وسيكون من الحسن لو تحدث الناس عن هذه الأفكار المتَّفَق عليها، وتناسَوا قليلًا حكايات الجدَّات عن الحروب الصليبية.

ربما يكتشف الغربيون ذات يوم أنهم بحاجة إلى قيم أخرى مساندة، تضُخُّ الدماء في الجسد الغربي، غير أن المشاكلَ لم تتأزَّم إلى درجة تدفعهم إلى البحث في ثقافات الآخرين، وإن كانت بدأت على مستويات فردية. في حين



شرع المسلمون بتلقيح قيمهم بمفاهيمَ غربية لا تتعارض مع الإسلام.

وهذه بعض المفاهيم الحضارية الإسلامية وأمثلة عليها:

- حفظ حقوق الآخرين: كتب عمر بن الخطاب لأهل القدس معاهدةً جاء فيها: «هذا ما أعطاه عمرُ أمير المؤمنين، أهلَ إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا على أنفسهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، لا تُسكَن كنائسُهم ولا تُهدَم ولا يُنتقَص منها، ولا من غيرها ولا من صُلبانهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحدٌ منهم».

و علماء أوربة اليوم، يشهدون لسماحة الإسلام، ويقرُّون له بذلك في كتبهم. قال (ميشود) في كتابه "تاريخ الحروب الصليبية": «إن الإسلام الذي أمر بالجهاد، متسامحٌ مع أتباع الأديان الأُخرى، وهو قد أعفى البطاركة والرُّهبان وخَدَمَهم من الضرائب، وقد حرَّم قتل الرهبان بخاصة لعكوفهم على العبادات، ولم يمسَّ عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس، وقد ذبح الصليبيون المسلمينَ وحرقوا اليهود عندما دخلوها»!.

- احترام الاتفاقيات: يقول القرآن: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

- المساواة بين البشر: يقول النبيُّ محمد: «أيها الناس، إن ربَّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لآدمَ وآدمُ من تُراب. إن أكرمَكم عند الله أتقاكُم، وليس لعربيٍّ على عَجَمي ولا لعَجَميٍّ على عربي، ولا لأحمرَ على أبيض ولا لأبيضَ على أحمر فضلٌ إلا بالتقوى».

- حرية المعتقَد: يقول القرآن: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

في حين ترفع الدولة البيزنطية شعار: (إما المسيحية أو الموت)، حتى بين المذاهب المسيحية المُختَلِفَة كان الناس يخيَّرون بين الرجوع عن مذهبهم أو الموت!.

- العدل: يقول القرآن: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

- التلاقح مع الثقافات الأخرى: يقول القرآن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

- العلم: لم يعرف الإسلام سلطةً كهنوتية، فالعلماء ورثةُ الأنبياء.

- العمل: يقول النبيُّ محمد: «إن الله يحبُّ إذا عملَ



أحدُكم عملًا أن يتقنَه».

- الشورى: يقول القرآن: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

- الكفاية لا المحسوبية: يقول النبيُّ محمد: «مَن وَلِيَ من أمر المسلمين شيئًا، فولَّى رجلًا وهو يجدُ من هو أصلَحُ للمسلمين منه فقد خانَ الله ورسوله».

- التنمية والتعمير: يقول النبيُّ محمد: «إن قامت الساعةُ وفي يد أحدكُم فَسيلَةٌ فإن استطاعَ ألا تقومَ حتى يغرسَها فليَغْرسها».

- التعايش: يقول القرآن: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

- الاتصال الثقافي: يقول النبيُّ محمد: «الحكمة ضالَّةُ المؤمن فحيثُ وجَدَها فهو أحقُّ بها».

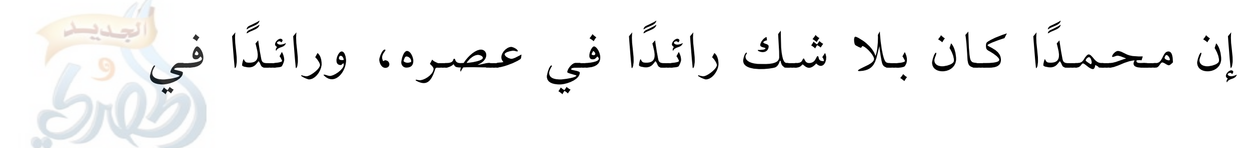
أرى أن الإسلام دينٌ متكامل يمتلك رؤية حضارية جيدة، ظلمها الأتباعُ أكثر مما ظلمها الأعداء، وإني لأرجو أن تقامَ حوارات؛ ليتعرَّف الناس الصورةَ الحقيقة للإسلام.

وإنني على يقين أن الإسلام لا يمثل تهديدًا لشعب من

الشعوب، أو حضارة من الحضارات، بل على العكس، لو أقبلت الحضارات عليه متخلِّية عن عصبيَّاتها لما وجدت فيه إلا خيرها وفلاحها. وبأكثر الأمثلة براءة وبُعدًا عن صداع السياسة والقوة أسأل: ماذا لو تضاعفت نسبةُ المصابين بالإيدز في العالم، وبحث أولو الأمر في الثقافة التي تجعل هذه النسبةَ منخفضةً بين الشعوب المسلمة، وكيف يمكن إحياء فكرة العفاف مرة أخرى؟ ألن تكونَ النتيجة حينها هي الإقبال على الإسلام؟ فأين خطورة الإسلام إذن؟!.

- دعم الكفايات: لم ينشئ محمد جهازًا إداريًّا بيروقراطيًّا، تكون ترقية الناس وفقه، بحسب السن أو الحظوة. فقد عيَّن شابًّا صغيرًا في السن قائدًا عامًّا للجيش وهو دون العشرين من عمره، وكان تحت إمرته وقيادته كبار الصحابة.

- احترام التخصُّص: لم يفعل محمدٌ مثل رجال الدين في العصور الوسطى، الذين تحكَّموا في البحث العلميِّ، واضطهدوا أصحابَ نظريات فلكية وطبية. محمد احترم التخصُّص والخبرة التقنية وقال للناس: «أنتم أعلَمُ بشؤون دُنياكم».



إن محمدًا كان بلا شك رائدًا في عصره، ورائدًا في



بيئته، والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة، ومما أعجبني من صنيعه أنه بدل أن يأخذَ فِديةً ضخمة من الأسرى المتعلِّمين أطلقهم مقابل تعليمهم أطفالَ المسلمين مبادئ القراءة والكتابة!. أتوقع أن يكونَ بعض معاصريه قد تعجَّبوا من هذه الصفقة! وكيف فضَّل تعليمَ الأطفال على الفِدية المادية المعمول بها في ذلك العصر، ولا يمكن أن يكونَ من يفكر في ذلك إلا إنسانًا حضاريًّا.





السيف

لدى المسيحيين شعور قوي بفارق كبير بين محمد وعيسى؛ إذ يرون أن محمدًا أدار المعاركَ وحمل السيف، في حين لم يكن عيسى محاربًا أبدًا.

أنا عندي وجهة نظر في هذا الموضوع، وهي أن دعوةَ عيسى استمرَّت نحو ثلاث سنوات فقط، ودعوة محمد استمرَّت ثلاثًا وعشرين سنة، لو قارنَّا مُدَّة دعوة عيسى بأول ثلاث سنوات من دعوة محمد، فلن نجدَ اختلافًا، فقد كانت دعوة محمد سريةً في هذه السنوات الثلاث، ولو أضفنا إليها السنوات العشر التالية لوجدناها مرحلةَ ملاحقة وتضييق واضطهاد. محمدٌ لم يحارب إلا بعد مرور أربع عشرة سنة على دعوته. ولا أتوقع أن عيسى لو استمرَّت دعوته أزيدَ على عشر سنوات، وانجذب إليه أتباعٌ كثيرون، لن يُضطَرَّ إلى فرض ما يراه حقًّا. وهو نفسه بدا غاضبًا عندما دخل الهيكل وقلب موائدَ الصيارفة، وكراسيَّ باعة الحمام. هذا يعني أن الرجلَ لم يكن سلبيًّا تجاه الأخطاء، والناس تحاول أن تراه لطيفًا ويعطي ولا يأخذ، مثل بابا نويل؛ لأن لديهم أمنيةً أن يفعلوا ما يريدون والأبُ سيغفر في النهاية!

لا أظن المسيحيين مؤمنين بالتوراة، والتوراة ملأى



بأخبار أنبياء قادوا معاركَ دامية لا رحمة فيها، بحسب النصوص، ومنها معركةٌ جلب فيها داود إلى شاول مئتي غُلفَة فلسطينيٍّ مهرًا لزواجه من ابنته ميكال! وكان هذا برهانًا على قتله مئتي فلسطيني، وهو مهرٌ غريب! والكتاب المقدَّس مملوء بنحو هذا.

إن المسيح لم يُبعَث لينقضَ الناموس، ولكن جاء لهداية بني إسرائيل، ولإعادتهم إلى تعاليم التوراة. في حين بُعث محمد لقوم وثنيين، أي إن هناك تناقضًا كبيرًا بين دعوته والإرث الدينيِّ في الجزيرة العربية.

وكان بنو إسرائيل رعايا للدولة الرومانية، وهذا يعني أنهم لا يملكون سُلطةَ شن حرب، ولم يكن مع المسيح عددٌ من البشر يصلح أن يمثِّل مشروعَ جيش. وضعُ محمد كان مختلفًا تمامًا، فالقبائل لها استقلالية في شنِّ الحروب، ومحمد بعد مضي ثلاث عشرة سنة من الدعوة السِّلمية صار لديه مشروعُ دولة وجيش، والأوضاع في الجزيرة لا تسمح بتخيُّل أن يقيمَ محمد دولةً بلا جيش، كسويسرا؛ لأن أعداءه كانوا سيقضون عليها في المهد. وهذه كلمات السيد المسيح: «هاتوا الذين لم يؤمنوا بي واذبحوهم قدَّامي»، «ماجئت لألقي سلامًا بل سيفًا ونارًا، جئت لأفرِّق بين الأم وابنتها».

إننا نؤمن أن المسيح قادم، لكنَّنا ندرك أن الوسيلةَ التي سيتعامل بها مع المسيح الدجال وجيشه ليست موعظةً كموعظة الجبل، بل سيُقاتله ويفني جيشه، بالسلاح لا بالكلمة، إننا مؤمنون أن الدم سيكون إلى أعناق الخيل وهذا تسجيل لواقعة حربية في التوراة: «وحرموا -استباحوا- كلَّ ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل و شيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحدِّ السيف» إبادة جماعية!.

لكننا اعتدنا ألا نرى سوى عيوب الآخرين؛ لأننا جيدون وليس عندنا عيوب! وننسى مقولة المسيح: «ولماذا تنظر القَذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبةُ التي في عينك فلا تَفطن لها». وإليكم نصَّ الدفاع عن النفس في القرآن: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

ولم يَشْرَع القرآن القتالَ على أنه غريزةٌ جماعية، بل شَرعَه على أنه غير محبَّب للنفس ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ



كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ومحمد نفسه يقول كلامًا جميلًا عن القتال: «لا تتمَنَّوا لقاءَ العدوِّ، واطلُبوا من الله العفوَ والعافية».

كانت حروب محمد لحماية الجبهة الداخلية، فقد أقام مجتمعًا كان مستهدَفًا من المحيط العربي الواسع حوله. وحتى القوانين الحديثة تسمح لأيِّ دولة بخوض حرب دفاعيَّة، هذا عدا تنظيرات الحرب الاستباقية. نعم، المسيح لم يحارب؛ لأنه لم تضطره الظروفُ لذلك، ومع هذا كلَّف الحواريين بحراسته والسهَر معه، وهي أيسر إجراءات الحماية، ولكنهم غفلوا عنه وناموا! فقال لهم المسيح معاتبًا: «أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعةً واحدة؟!».

وعمومًا لم أجد في أيٍّ من الكتب السماوية الثلاثة نصًّا واضحًا يقرِّر أن الله لا يريد القتالَ أبدًا، ويجب ألا نتخيَّلَ إرادة الله كما نهوى. ربما لو أتيح لنا مشاهدةُ طوفان نوح، أو تدمير سدوم، لغيَّرنا أفكارنا. إن بعض الناس يتلذَّذ بالكلام على سلام المسيح وروحانيته، ولا يكلِّف نفسه التصرُّف في السلطة التي منحه الله إياها في الأرض بالعدل والرحمة، بل يسمِّي الحروب الظالمة لقتل المدنيين والأطفال باسم المسيح، والمسيحُ منها براء! في حين وَضَعَ محمد لجيوشه الكثيرَ من الضوابط الدالة على الرحمة والرأفة حتى

بالأعداء، ومن ذلك أنه قال: «لا تقتُلوا شيخًا، ولا امرأة، ولا صَبيًّا، ولا عابدًا أو راهبًا في صومَعَته»، ودعا أيضًا إلى عدم قطع الأشجار أو إيذاء الحَيَوانات في المعارك!.

إذا كان الإسلام انتشر بحدِّ السيف كما يُشاع، فلماذا ظلَّ المسلمون أقليَّة في الهند، والهندوس فيها أغلبيَّة؟. والجواب: لأن الهند فُتحت بالدعوة باللين، وبوساطة التجار المسلمين.

وبإزاء هذا السؤال تحضُرني أسئلة عديدة:

لماذا لم يتبقَّ في الأندلس ولو فئةٌ قليلة من المسلمين بعد سقوط دولتهم؟. والجواب: لأنهم أُجبِروا على اعتناق المسيحيَّة، وإلا فالقتل أو الطرد.

ألم تستفد المسيحية من كونها أصبحت الديانةَ الرسمية للدولة الرومانية، فتوسَّعت في أوربة، وتم القضاء على الوثنيَّة بقوة الدولة قبل مَنطق الوعَّاظ؟.

ألم يحرِّض البابا أوريان الثاني العروشَ الأوربية من أجل تجييش الجيوش لتحرير أورشليم؟. وهذه وثيقة صليبيَّة عن الحرب المقدسة: «كان علينا قطعُ طريق طويلة باتجاه الشرق لمحاربة أعداء الرب. وشاهدنا أمامنا أكثرَ أعدائه: اليهود، فكان علينا التخلُّص منهم كذلك، أنتم ذرية أولئك



الذين صَلَبوا وقَتَلوا إلهنا وهو القائل: (ويأتي يوم ينتقمُ فيه أبنائي لدَمي). نحن أبناؤه ومهمَّتنا أن ننتقمَ له منكم، لما كنتم عليه من تعَنُّت و كفر تجاهه. لقد هجركم الربُّ، وهلَّ بنوره علينا وجعَلَنا من أهله».

أما الجرائم الشنيعة التي كانت بين المذاهب المسيحية، فهي مما لا أرغبُ في الكتابة عنه.

لو انتهى الناسُ عن التعصُّب لانتفت الحروب والخلافات، ولعاشت البشرية في سلام وطمأنينة ووئام.





البِشارة

في إنجيل يوحنا: أرسل اليهود من أورشليم بعضَ الكهنة واللاويين يسألون يوحنا: «من أنت؟»، فاعترفَ ولم ينكر، بل أكَّد قائلًا: «لست أنا المسيح». فسألوه: «ماذا إذن؟ هل أنت إيليا؟»، قال: «لست إياه!». «أو أنت النبي؟» فأجاب: «لا».

هذا النصُّ صريح الدلالة على أن هناك نبيًّا منتظَرًا، وهو غير يوحنا وغير المسيح، وتعريفه بـ (أل) يعني أن أمره مشهور بينهم، وليس نبيًّا من أنبيائهم المعروفين، وإنما نبيٌّ ينتظرون بعثته.

بِشارةُ تحوُّل:

هي بِشارةٌ بظهور نبيٍّ من غير بني إسرائيل:

- قال يعقوب لأبنائه ينبِّئُهم بما هو قادم: «لا يزول صولجانٌ من يهوذا أو مشرّعٌ من بين قدميه حتى يأتيَ شيلوه، ويكونَ له خضوع الشعوب». هذه بِشارةٌ بنبي من غير بني إسرائيل، ولا تخصُّ المسيح؛ لأنه منهم، ومن نسل يهوذا من جهة الأم.

- وقال المسيح: «إن ملكوتَ الله سينُزَع منكم ويُعطى



لأمة تُثمر ثمرَه».

وفي (سِفْر التثنية)، يخاطب الله موسى:

- «أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم، مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكل ما أوصيه به». والمقصود بإخوة بني إسرائيل: إما أبناء عيسو، أو أبناء إسماعيل، ولم يظهَر أي نبيٍّ في بني عيسو، ولم يظهر في بني إسماعيل نبيٌّ غير محمد. ولو كانت الإشارة إلى عيسى لقيل: (نبيًّا منهم)، ولو قال المسيحيون: إن عيسى كموسى وهو المقصود، لما صحَّ وصف عيسى بأنه ابن الله الأزلي. ومعنى الإخوة واضح في هذا النص: «أوصى الشعب قائلًا: أنتم مارُّون بتخم إخوتكم بني عيسو الساكنين في سَعير» بمعنى: إن كان الأجداد إخوةً كان الأحفاد إخوة، والتشابه بين نبوةَّ موسى ومحمد في أن كلًّا منهما كانت رسالته تأسيسية أقامت أمَّة، وحدث لكليهما قَبول واسع من أمته، وكذلك حدث لكليهما تمكينٌ، وهذا لا يشابه وضعَ المسيح.

- «هم أغاروني بما ليس إلهًا، أغاظوني بأباطيلهم، فأنا أغيرهم بما ليس شعبًا، بأمَّة جاهلة أغيظهم». أوَّلَها بولس بأنها أمةُ اليونان، وهذا تأويلٌ غريب؛ إذ أمة اليونان كان لديها عباقرةُ الرياضيات والفلسفة والطب؛ أمثال:

أرسطاطاليس، وأبقراط، وجالينوس، وبطليموس، وأرخميدس، وفيثاغورث. . وإن الكتاب المقدَّس كان مترجمًا إلى اليونانية قبل عصر المسيح، والوصف يناسب العربَ في عصر محمد، فليس عندهم فلسفة ولا رياضيات ولا علوم دينية.

- «وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين». أما هذه فصريحة، بل صريحة جدًّا.

بشارةُ مكان:

- «عابرين في وادي البكَّاء يصيِّرونه يَنبوعًا. أيضًا ببركات يغطون مورة». وبكة هو أحد أسماء مكة، على ما هو مذكورٌ في القرآن. واليَنبوع هو بئرُ زمزم التي ما زال الحجَّاج يشربون من مائها.

- «فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبال فاران». أما سيناء فتشير إلى رسالة موسى، وأما سعير فتشير إلى رسالة المسيح، وأما فاران -التي نشأ فيها إسماعيل- فتشير إلى رسالة محمد.

- «أيها المنحدرون في البحر، وملؤه الجزائر وسكانها، لترفع البرِّيَّة ومدنها صوتَها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنَّم

سكان سالع في رؤوس الجبال، ليهتفوا، ليعطوا الربَّ مجدًّا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر». ديار قيدار بمكة، أما جبل سالع فهو بالمدينة، والترنيم هو تسبيحُ المسلمين وتلبيتهم في شعائر الحج.

- «جميع قُطعان قيدار تجتمع إليك، وكِباش نبايوت تخدمك، تقدم قرابين مقبولة على مذبحي، وأمجد بيتي البهي». ما زالت الكباش تُساق أضحيَّات في الحج، وقيدار ونبايوت هم أبناء إسماعيل، وبذا تثبت هذه الآية أيضًا أن المسجدَ الحرام بمكة هو بيت الله، الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وهو فعلًا وصفٌ لا يرتبط بهيكل آخر.

- «تفتح أبوابك دائمًا ولا توصد ليل نهار، ليحمل إليك الناسُ ثروةَ الأمم». والمسجد الحرام حقًّا لا يُغلَق أبدًا.

بشارةُ لغة:

- «غنوا للربِّ أغنية جديدة». إذًا اللغة جديدة، لا عِبريَّة ولا آراميَّة.

- «سيخاطب الرب هذا الشعبَ بلسان غريب أعجمي». إذًا اللغة غريبة عن اليهود، لا عِبريَّة ولا آراميَّة.



بشارةُ أحداث:

- نزول الوحي: جاء في نبوءة أشعياء: «أو يُدفَع الكتابُ لمن لا يعرف الكتابة، ويُقال له اقرأ هذا فيقول: لا أعرف القراءة»، وهو وصف لا ينطبق إلا على النبيِّ الأمي محمد، ولا ينطبق على موسى ولا عيسى؛ فكلاهما تلقَّيا قدرًا وافرًا من التعليم قبل بعثتهما. ويكاد يتطابق سردُ النبوءة في النص السابق مع حديث بدء نزول الوحي على محمد: «حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حِراء، فجاءه الملَك فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ».

- الهجرة: «فاحملوا يا أهل تيماء الماء للعطشان، واستقبلوا الهاربين بالخبز، لأنهم قد فرُّوا من السيف المسلول، والقوس الموتر، ومن وطيس المعركة» أشعياء. إنها بشارة تتعلق بهجرة محمد، وتيماء تقدَّم الحديث عنها، هي أقدمُ حاضرة في الإقليم الذي تنتمي إليه يثرب (المدينة)، وكان يسكنها اليهود أيضًا.

- غزوة بدر (أول وقعة بين المسلمين والكفار): «لأنه هذا ما قاله لي الرب: في غضون سنة مماثلة لسنة الأجير، يفنى كلُّ مجدِ قيدار». بشارة تتصل بانتصار المسلمين في غزوة بدر، بعد مرور سنة على الهجرة.

- فتح مكة وبداية النهاية لعبادة الأصنام: «قد ارتدُّوا إلى الوراء، يخزى خزيًا المتَّكلون على المنحوتات، القائلون للمسبوكات أنتن آلهتنا». ومحمد حارب وانتصر على عَبَدَة الأصنام.

تلك حقًّا أهم الأحداث في حياة محمد: نزول الوحي، الهجرة من مكة إلى المدينة، غزوة بدر، فتح مكة.

بشارةُ التمكين:

وهي بشارة للنبيِّ بأنه سينتصر على أعدائه، ويطبِّق الشريعة، ولن ينالَ منه المخالفون، فهو رسولٌ مؤسِّس:

- «لا يكلُّ ولا تثبط له همة حتى يُرسخَ العدل في الأرض». ولا يمكن ربط هذه النبوءة بالمسيح؛ لأنه وإن كان قد بذل جهدَه في الدعوة، لم يتمكَّن من إرساخ العدل، بل رفض أن يحاكمَ الناس. أما محمد فأقام الشريعة.

- وفي سياق بشارة أقتطفُ هذه الدلالة على التمكين: «أنا الرب قد دعوتك بالبِر فأُمسك بيدك، و أحفظك، وأجعلك عهدًا للشعب و نورًا للأمم». ويتمسك المسيحيون جميعًا بأنها تخصُّ المسيح، لكن إذا كان المسيح قد ضُرب وصُلب فأين الحفظ؟!.

- أما داود فيقول: «قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضعَ أعداءك مَوطئًا لقدميك». وربي هنا تعني معلِّمي، والمسيحيون مؤمنون بأنها تخصُّ المسيح، وأنا لن أنفيَها عنه؛ لأنه هو تولَّى ذلك بنفسه، بمنطقٍ ذكي وواضح في إنجيل متَّى، بمنطقِ أن داود لن يقولَ عن ابنه (المسيح) ربي.

- «فيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلًا: ماذا تظنون في المسيح، ابن من هو؟ قالوا له: ابن داود. قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح ربًّا قائلًا: (قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضعَ أعداءك مَوطئًا لقدميك)؟ فإن كان داود يدعوه ربًّا فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحدٌ أن يجيبَه بكلمة. ومنذ ذلك اليوم لم يَجسُر أحد أن يسأله البتة». ومعناه أن البشارةَ لم تنطبق على أحد قبل المسيح، ولا تنطبقُ عليه بشهادته، فعلى من تنطبق؟.

بشارةُ شعائر:

- صلاة المسلمين كما يعرفها الجميع، يصطف فيها المصلُّون كتفًا لكتف: «لأني حينئذ أحوِّل الشعوب إلى شَفة نقية ليدعوا كلهم باسم الرب، ليعبدوه بكتف واحدة».

- وذكرنا آنفًا البِشارة بشعائر الحجِّ، كالتهليل والتلبية والتضحية.

وأنا عندي أن هذه البشارات منسجم بعضُها مع بعض، وتخص شخصًا واحدًا، وهي لا تتوافق إلا مع محمد، ولا يجوز ردُّ هذا التأويل إلا بصورة إجمالية.

إنني كمَن أمسكَتْ بقطع (البازل) كلها، فصنعت منها شكلًا صحيحًا متكاملًا. والطريقة الوحيدةُ لإقناعي بأنني أخطأت التأويل، هي استخدام كلِّ العناصر التي استخدمتُها، في صناعة شكل صحيح متكامل مختلف عن الذي توصَّلت إليه.

إن استقرارَ شعيرة الحج، والأمانَ الذي يلفُّ مكة، هما في قوة البِشارات في النصوص، وأيُّ بيت من بيوت الله حصل له هذا الاستقرار؟.

وبئر زمزم التي يشرب منها أكثر من مليونَي حاج سنويًّا، وتسعة ملايين معتمر، ولم تنضُب!.

والطيور التي تطوفُ حول الكعبة ولا تعلوها أبدًا.

وأركان الكعبة التي تتَّجه بالضبط نحو الجهات الأصلية الأربع، واتجاه الطواف حولها عكس عقارب الساعة، مثل اتجاه طَواف الإلكترون حول الذرَّة، ودوران الكواكب. وقد قام عالم أمريكيٌّ متخصص في علم الطبوغرافيا بإجراء بحوث استنتج منها أن مكةَ المكرمة هي المركز المغناطيسي



للكرة الأرضية.

ألا يُعَدُّ كل هذا من الأمور المدهشة! ولما كنا عصريين فيجب أن نبحثَ عن البشارة في النص، وفيما يحيط بنا أيضًا من ظواهرَ لا يفسرها العلم؟.





النبوءة

- في القرآن آيات تقول: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: ١-٤]، في هذا النصِّ طاقة من المعجزات، فهو يتنبأ بانتصار الروم على الفُرس في أقلَّ من عشر سنوات، وبانتصار المسلمين على الكفار، وبأن الانتصارَين متزامنان، وبأن هزيمةَ الروم على يد الفرس جرت في أكثر مناطق الأرض انخفاضًا، وهذا لم يكن من معلومات ذلك العصر أبدًا!.

ومن المعلوم تاريخيًّا، وبشهادة (توينبي): أن دولة الروم بعد تلك الهزيمة، بدا أنها لن تقومَ لها قائمة؛ إذ لم يتبقَّ لقيصرَ إلا القسطنطينية، وسقطت كلُّ البلاد، أي أن هذا الانتصار مما لا يتوقَّعه الخبراء العسكريون، ومن ثَم من العسير أن يُجازفَ به مدَّعي نبوة.

أما تعبير (في أدنى الأرض) فيشتمل على إعجاز علميٍّ، فكلمة (أدنى) في اللغة العربية تكون بمعنى الأكثر قربًا أو الأكثر انخفاضًا، ولم يختَر المفسِّرون القدامى إلا التفسيرَ الأول أي أن الهزيمةَ كانت في أقرب بلاد الروم إلى مكة.
ولكن المعركة التي هُزم فيها الروم وقعت في أغوار البحر

الميت (حوض وادي عربة)، وهي أكثر مناطق اليابسة انخفاضًا عن مستوى سطح البحر في العالم كلِّه، وهذه حقيقة علمية عُرفت أوائل القرن العشرين.

- وتنبَّأ القرآن بفتح مكة، في سورة النصر، وتحقَّق وعد الله وفُتحت مكة، وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا.

- وتنبَّأ النبي محمد بأحداث موقعة مُؤتَة أمام جمع من المسلمين في خُطبة له فقال: «أخذ الرايةَ زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفرٌ فأصيب، ثم أخذها ابن رَواحة فأصيب -وعيناه تذرفان- ثم أخذ الرايةَ سيفٌ من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم». وقد وقع ما تنبَّأ به وأخبر عنه بحذافيره، مع ما بين النبيِّ والمعركة من مسافة شاسعة. وقد نعى للمسلمين الأبطالَ الثلاثة!

- وتنبَّأ النبي محمد بفتح اليمن، ثم الشام، ثم العراق، وهذ ما حدث بالضبط.

- وتنبَّأ النبي محمد بفتح فارسَ ومصر، وهذا قد حدث.

- وتنبَّأ بفتح القسطنطينية عاصمة دولة الروم! وقد حدث هذا بعد أكثر من سبعة قرون. وقبل حدوثه كانت النبوءةُ معلومةً لملايين المسلمين، ومحفوظة في كتب الأحاديث.

- القرآن والحديث النبوي تَنبَّأا بتجمُّع اليهود من



الشتات، وهذا ما حدث بعد قرون طويلة.

- وتنبَّأ النبي محمد بأن الأعاجمَ سيحاصرون العراقَ اقتصاديًّا، فيمنعون عنهم الطعام والمال، وقد حدث حقًّا. ولا شكَّ أن هذا الحديث يعدُّ غريبًا في عصره؛ لأن الناس كانت لا تدرك كيف يمكن منع المال والطعام عن بلدٍ في حَجم العراق ومِساحته، له حدود واسعة ولا تحيط به أسوار. لكنه حدث في العصر الحديث.

- وتنبَّأ أيضًا بحصارٍ يلي حصار العراق، وهو حصار الشام.

وفي كلتا النبوءتين استخدم النبيُّ تعبيرًا يفيد المنع غير الكامل.

وهناك الكثير، ولكني ذكرتُ بعضَ ما ورد في القرآن، وبعضَ ما سمعه من النبي جماعةٌ من الناس وليس فردًا فقط. هذا فضلًا عن تنبُّؤ القرآن بموت ثلاثةٍ من قريش على الكفر، وقد أسلفتُ الحديث عنهم، وهم: أبو لهب عم النبي، وزوجة أبي لهب، والوليد بن المغيرة.

وبخلاف تلك النبوءة «سَيكُونُ في آخِرِ أُمَّتي رجالٌ يَركَبُونَ على السُّروجِ كأشباهِ الرِّحال»، وهي تتنبَّأ بوسائل نقلٍ جديدة.

القرآن والعلم

- في القرآن: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨]. وبطبيعة الحال، الناس يتأملون في الجبال ويجدونها ثابتة، ولا يراها أحدٌ قد حالت عن مكانها. إن مرورَ الجبال لا يمكن فهمُه إلا عند تأملها من الفضاء، إذ تتبدَّى حركة الأرض، وتظهر الجبال غيرَ ثابتة في النِّقاط ذاتها من الكون. طبعًا دورانُ الأرض لم يكن من الحقائق العلميَّة المعروفة عند نزول تلك الآية.

- ويورد القرآن مراحلَ تخلُّق الجنين على نحو دقيق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. ففي البداية يكون الجنين نُطفةً، ثم تلتصق النطفة بجدار البُوَيضة فتصير (علقة)، وتتحول سريعًا إلى كتلة مكوَّنة من عدة فلقات (Somites) تبدو كمادة ممضوغة مطبوع عليها شكل الأسنان وتسمَّى (مضغة)، ثم يبدأ تكوين العظام، ثم تكتسي العظام لحمًا، وهذا ما يقرِّره العلم الحديث بوسائلَ علمية دقيقة، لم تكن متاحةً قبل أربعة عشر قرنًا.

- ويقول القرآن: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]. وتفسيرها بحسب العلوم الحديثة: أن اليَخضور هو مخزنٌ لطاقة الشمس، وهو الذي يساعد في عملية الإحراق، ولولا اليخضورُ لما خُزِّنت الطاقة، ولما حصلنا على الوَقود، وهذا يخالف فهم القدامى من أن الشجر الأخضرَ ليس مصدرًا للطاقة.

- وفي القرآن: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]. ولن يتكوَّر الليل والنهار إلا على جسم كرويٍّ، لذا أيقن معظم علماء الإسلام قديمًا -من الآية- أن الأرض كروية.

- ومن آيات الإعجاز في القرآن: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ولا ريب أن هذه الآيات حينما نزلت لم يكن قد صَعِدَ أيُّ إنسان في السماء ليشعرَ بضيق التنفُّس في الجو، ولم يكن أحدٌ قد سمع عن الضغط الجويِّ وأنه في انخفاضٍ كلما صَعِدنا إلى أعلى، ولا بنقص الأكسجين كلما أمعنًا في الارتقاء، وقد كان الناس يعتقدون أن الهواء ممتدٌّ بلا نهاية. إن الشعور بضيق التنفُّس لا يُدرَك إلا على ارتفاع أكثر من (١٠٠٠٠ قدم)، ففي هذا الارتفاع تبدأ المعاناة، وهذا أعلى من جبال

مكةَ التي كان يصعدها محمد، أي أنه لم يجرِّب هذا الشعور يقينًا.

- وفي القرآن: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل: ٦٦]. فكيف تسَنَّى لمحمد قبل قرون أن يقرِّر ما أثبته العلم الحديث؟! يقرِّر العلماء اليوم أن الحليب يُكوَّن من موادَّ متوافرة في الفَرْث (والفرث: هو محتويات الكَرِش من علف مخمَّر بفعل جراثيمَ نافعة تساعد على تخمير الأعلاف معقَّدة الهضم) وموادَّ قسم منها متوافرٌ في الدم أصلًا، وقسم يأتي إلى الدم من الكرش.

- ويقول القرآن: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠]. ووفق علوم القرن العشرين، هناك على بعدٍ يبدأ بـ (١٠٠٠ متر) في عمق البحر، أمواجٌ كتلك التي على السطح.

- وفيه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾ [يونس: ٩٢]. تتحدَّث الآية عن الفرعون الذي طارد موسى ومات غريقًا، إن الله سيُنجي بدنه بعد الغرق؛ ليبقى عِبرة للناس على مرِّ القرون التالية.. إن هذه المومياء وغيرَها كانت مدفونة في وادي



الملوك بالأُقصُر، ولم يكن أحدٌ في عصر النبيِّ محمد يعرف عنها شيئًا، ولم تُكتشَف إلا في نهاية القرن التاسع عشر. والجثَّة فحصها موريس بوكاي، وأسلم بسببها، ووجد آثارَ الغرق باديةً عليها وآثارَ ملح ماء البحر.

- ويقول القرآن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]. أطلق ألبرت أينشتاين (Einstein .A) نظريته عن النسبيَّة العامة لشرح طبيعة الجاذبية، وأشارت النظرية إلى أن الكونَ الذي نحيا فيه غيرُ ثابت، فهو إما أن يتمدَّد، أو ينكمش، وفقًا لعدد من القوانين المحددة له. لكنَّ الأمر كان على عكس ما اعتقد أينشتاين وجميعُ معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية، انطلاقًا من محاولاتهم اليائسة لمعارضة الخلق. لقد أصاب أينشتاين الذعرُ عندما اكتشف أن معادلاته تُنبئ -برغم أنفه- أن الكون في حالة تمدُّد مستمر، ولذلك عمد إلى إدخال مُعاملٍ من عنده أطلق عليه اسم (الثابت الكوني)؛ ليُلغيَ حقيقةَ تمدُّد الكون! ويدعيَ ثباته واستقراره. ثم عاد ليعترف أن تصرُّفه هذا كان أكبرَ خطأ علمي اقترفه في حياته.

وقد قام العالم الهولندي وليام دي سيتر (William de Sitter) بنشر بحثٍ في السنة ذاتها (١٩١٧م) استنتج فيه تمدُّد الكون انطلاقًا من النظرية النسبيَّة ذاتها. ومنذ ذلك

التاريخ بدأ الاعتقاد بتمدُّد الكون يلقى القَبول عند أعداد كبيرة من العلماء.

لقد نطق محمد بحقيقة علمية تعجَّب من اكتشافها ألبرت أينشتاين في القرن العشرين!.

- وفي القرآن: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٦-٧]. ومعنى جعْلِ الجبال أوتادًا أن لها جذورًا عميقة تمتدُّ إلى داخل الغلاف الصخري، فتعمل على توازُن الأرض. ولقد أثبت العلم الحديث أن جذورَ الجبل أطول كثيرًا من الارتفاع الظاهر على السطح.

- ومن آيات الإعجاز العلمي أيضًا: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]. والتعبير معناه أن الحديد ليس من مكوِّنات الأرض، وأنه واردٌ من الفضاء، وقد صرَّح بعض علماء (ناسا): إن الحديد يستحيل أن يكونَ خُلقَ في الأرض، الحديد لابد أن يكونَ قد خُلقَ في السماء ونزل إلى الأرض؛ لأن تكوينَ ذَرَّة حديد واحدة تتطلَّب طاقةً تزيد على طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات! فالحديد عنصرٌ وافد من الكون، بلا شك!.

وفي القرآن الكثير من آيات الإعجاز العلميِّ التي يقف المرء أمامها مذهولًا، مسلِّمًا بأن هذا الكلامَ يستحيل أن

يأتيَ به رجلٌ أمي ظهر قبل أربعة عشر قرنًا! وَسْطَ شعب قليل التحصيل المعرفي، ثم يكون صحيحًا ودقيقًا، وليس فيه أدنى تعارض مع أيِّ حقيقة علميَّة حديثة، إنه لكتاب جدير بأن يتأمَّله كلُّ باحث عن الحقيقة.



الحصاد

مرَّ عام كامل، ليس ككل الأعوام، تجرِبةٌ ثرية مكَّنتني من قناعات مغايرة، وأشكر الله الذي منحني الوقتَ كي أراجعَ وأتأمَّل وأفحص. وأشكر الله الذي أعطاني هذه الفطرةَ التي كانت تأبى عليَّ منذ الطفولة أن أشعرَ بالراحة في ظلِّ مفاهيم خاطئة.

درستُ الإسلامَ في حدود إمكاناتي العقلية، وقرأتُ القرآنَ مرات عدة، وبحثت بنَهَمٍ عن ثُغرة منطقية أو علمية، ولكني لم أجد.

ونشأت عندي أسئلة كثيرة، بعضها ناتجٌ عن عدم امتلاكي ثقافةً إسلامية تمكنني من فهم الدلالات في كلِّ الأحوال فهمًا صحيحًا، لكني دائمًا كنت أعثر على إجابات واضحة ومنطقية، في كتاب، أو على موقع إسلامي في الشابكة (الإنترنت).

آلافَ الصفحات قرأت، أجل قرأت كثيرًا أضعاف ما كتبت، وما دوَّنته وكتبته كان مجرَّد ملامحَ لكلٍّ من الشك واليقين، وليس كلَّ ما وجدته واعتقدته. لكنني أقول بصراحة تامَّة: إنني لم أبلع شيئًا غيرَ قابل للمضغ، ولم أحصل على شيء وأخفيه في صندوق؛ فلم يكن لي مصلحةٌ في ذلك أبدًا.



ربما كان من المفاهيم التي توصَّلتُ إليها بخصوص الأديان -من الناحية الاجتماعية، وليس من الناحية الغَيبية- أن الأديان تمرُّ في أحيان كثيرة في البدايات -خصوصًا إذا ما غاب رمزها الرئيس- بلحظات فارقة تبلغ في الصعوبة الغاية. فتوضع قدرتُها على البقاء على المِحَك، وكأي سفينة يتهدَّدها الغرق، يبدأ رُبَّانها بإلقاء بعض الحمولات لتظلَّ السفينة طافية، فهناك مقتضيات للطفو الاجتماعيِّ للأديان.

مرَّ الإسلام بتجرِبة صعبة بعد موت النبيِّ محمد ﷺ، إذ ظهرت مشكلةٌ اجتماعية بين بعض القبائل البَدَوية التي اشتاقت إلى الاستقلال الذي ألفته. وبدأت تلك القبائلُ تعلن عدمَ رغبتها في دفع الزكاة المخصَّصة للفقراء، وتعلن انفصالها واستقلالها كأيِّ حركة انشقاق، ولكن أصحاب النبيِّ لم يسمحوا بهذا، ولم يُلقِ ربان السفينة الجديد أيَّ شيء من حمولتها التي تركها النبي المؤسِّس. إن وجود إيمان راسخ، وبنية مدنيَّة قوية تضمُّ المؤمنين بالدين الإسلامي، واختيار رجل ممن شاركوا النبيَّ ﷺ في كفاح الدعوة منذ البداية، وحضور الجانب السياسيِّ والمدني في شخصية المسلمين، كلُّ هذه الأمور ساعدت في الاحتفاظ بكامل الحمولة، برغم قَسوة الأجواء.

قبل هذا كانت المسيحية قد مرَّت بتجرِبة صعبة جدًّا،

هاجت الأمواجُ حول سفينة المسيحية، وجرى ملاحقةُ واضطهادُ وقتل تلاميذ المسيح. نعم كان رجال الطبقة الأولى لديهم إيمانٌ راسخ، لكن لم تكن هناك بنية مدنيَّة تضمُّ المؤمنين بدين المسيح، ورُبَّان السفينة كان رجلًا لم يتشرَّف بلقاء المسيح، بل كانت يداه تبطِشان بالمسيحيين! وبقفزة واحدة أصبح هو القائدَ دون الجميع! في ظلِّ غياب الجانب السياسيِّ والمدني في شخصية المسيحيين الأوائل.

أجل لقد قام (بولس) بإلقاء كل ما يمكن إلقاؤه حتى تطفوَ السفينة، ويتمكَّن من تسويق الدين الجديد خارج المجال الحيويِّ وهو المجتمع اليهودي، وتغيرت أشياء كثيرة.. وكأن الرجل يملك خَتمًا من المسيح يبيح له التغيير والتبديل غيرَ المحدود. فتحوَّل السبت إلى أحد! وأُحِل لحم الخنزير! ومع أن المسيح اختتن وهو طفل، فإن أطفال أتباعه جميعًا لا يُختتون الآن!

كان (بولس) رجلًا ذكيًّا جدًّا، ومثقفًا ونشيطًا، وأعاد تكوين صورة جديدة لدين المسيح، بل للمسيح نفسه! وعاش المسيحيون الأوائل في صراع بين ما يعرفونه عن المسيح وبين ما يدَّعيه الرُّبان من معرفة خاصة. وضَمَرَ التيارُ المخلص المتمسِّك بالحقيقة، وقَوِيَ تيار الفلسفة، وتقرَّر اعتماده اعتمادًا تامًّا بقوة روما. ورضي الربان أن تدخلَ

الأمم في سفينته وهي محمَّلة بعفشها الوثنيِّ الديني والثقافي، فنتج عن ذلك نتاجٌ عجيب، ضعيفُ العلاقة بالله، وضعيف العلاقة بالمسيح، نتاج مركَّب من أفكار العديد من الأمم! والرجوع إلى مراجع تاريخية يجعل ذلك أقوى من مجرَّد تخمين.

وأكبر خطأ وقع فيه المسيحيون الطيِّبون الأوائل، الذين ذاقوا الويلَ، هو اعتقادهم بسرعةِ رجوع المسيح، وبسبب هذا الاعتقاد تحوَّل كل شيء مهم إلى رتيب (روتيني)، ومنه تدوين سيرة المسيح وتعاليمه تدوينًا دقيقًا بعد رحيله توًّا، ومنه تنظيم الصفوف. لكن هل سيفعل ذلك من يعتقد بأنه سيرى المسيحَ مرة ثانية بعد مدَّة قصيرة؟. أقول باختصار: لم يخطِّط الناس لغياب طويل للمسيح.

وبعد ألفي عام، كانت قد جرت في النهر مياهٌ آسنة كثيرة، ولو أُتيحَ للمسيح أن ينزلَ ويحضر اجتماعًا لاهوتيًّا بين علماء يتناقشون في الأقانيم لقال لهم: عفوًا، عن أيِّ شيء تتكلمون؟. أستطيع أن أراهنَ على ذلك.

لقد قُرِّرت ألوهية المسيح في القرن الرابع الميلادي!. بعد طرد ونفي جمهور من يعتقد أن المسيح نبيٌّ مرسَل (مجمع نيقية ٣٢٥م)، وقُرِّرت ألوهية الرُّوح القُدُس في مجمع القسطنطينية (٣٨١ م).

أي بعد رحيل المسيح عن هذا العالم، بزُهاء ثلاثة قرون ونصف، تم إعلان الشكل النهائي لله، وللدين المسيحي!.

أنا عدتُ إلى دين المسيح الحقيقي، فعلتها لأنني لا أستطيع الصبرَ حتى يعود. عدت إلى دين المسيح بلا طقوس وأسرار وكَهَنة، دينُ المسيح هو التوحيد، وتعاليمه هي أن ملكوتَ الله مفتوح لكلِّ البشر، وليس لقبيلة أو فئة معينة.

حتى اسم المسيحية على أنها دين، لم يختره المسيحُ نفسه، لم يقل أبدًا: دينكم هو المسيحية. لقد تم اختطافُ المسيح.. وهؤلاء الأغرار حول العالم، الذين يحبون المسيحَ جدًّا، لا يعرفون أنه لم يدَّعِ الألوهية، ولم يطلب من تلاميذه أن يعبدوه!. لا يعرف هؤلاء أن المسيحَ بعد هذا الحبِّ الجارف لن يقابلَهم حتى بابتسامة! موقف صعبٌ جدًّا على المحبِّين الذين لا يعرفون!.

أما أنا، فكلُّ ما عرفته أن أنبياء الله جميعًا هم كالإخوة، دَعَوا إلى عبادة الله وحدَه، وأن كل إنسان سيُحاسب على عمله، وأنه لا خطيئة تورَث، وأننا نولد أبرياء. وقد وجدتُ كلَّ هذا في الإسلام وفي القرآن.

حصاد هذا العام وفيرٌ جدًّا وغنيٌّ جدًّا ونفيسٌ جدًّا، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. وأشهد أن



هذا الإيمانَ أعادني إلى نفسي، وإلى عالم المسيح الحقيقيِّ.

وليس لديَّ الآن إلا إحساسٌ بالسلام الداخليِّ، غير أني حزينةٌ من أجل من أحبهم، فالمسيحيون هم كلُّ الأهل ومعظم الأصدقاء، وأدعو الله أن يمكِّنَهم من معرفة الحقيقة، حتى لو كانت مُرّةً، فلا أَمَرَّ من أن نصحبَ أوهامنا حتى المقبرة، ثم نفاجَأ بأن المسيحَ يُشيح بوجهه بعيدًا عنا.

يا رب أسألك للناس الهداية، وأسألك أن تحميَني في عاصفة الأيام القادمة.

والحمد لله ربِّ العالمين











الفِهْرِسُ العامُّ

الموضــوع رقم الصفحة



هذا الكتاب

بحثٌ طريفٌ كتبته فتاةٌ مثقَّفةٌ قبطيَّة تقلَّبت في أعطاف النصرانيَّة عشرين عامًا. ومع تعمُّقها في دراسة التَّوراة والإنجيل لم تجد راحةَ النفس ولا طُمأنينةَ الرُّوح، واستولَت عليها حَيرةٌ مؤلمةٌ مُمضَّة! إلى أن نهضَت بعزيمة متوثِّبة إلى دراسةِ القرآن دراسةً موضوعيَّةً مدقِّقَة، مع موازَنَة أحكامه وبيانه بما عرَفَته في الكتاب المقدَّس. وفي أثناء رحلتها هذه سطَّرت بعضَ الرُّؤى والملاحظات والحقائق الجديرة بالاطِّلاع والتأمُّل!



جائزة الألوكة

انطلاقًا من حرص شبكة الألوكة على إذكاء روح التنافس الهادف بين الكتَّاب والمثقفين والمبدعين، وانسجامًا مع الجهود التي تبذلها المؤسَّسات الثقافية المختلفة، أُنشِئت جائزة الألوكة للإبداع في مطلع عام ١٤٢٧هـ، متضمِّنةً عددًا من المسابقات العلمية والثقافية والأدبية المتميزة، التي احتلَّت مكانة مرموقة بين كبريات المسابقات الثقافية العربية.

- جائزة الألوكة للإبداع إسهامٌ في صناعة الثقافة الإلكترونية التفاعلية الهادفة.
- جائزة الألوكة للإبداع تحفيزٌ لمواهب المبدعين، وخطوة جادَّة في تطوير مسيرتنا المعرفية.

المسابقة الأولى :

مسابقة انصر نبيك .. وكن داعياً

أطلقتها شبكة الألوكة لنصرة نبيِّ الأمَّة محمد ﷺ ، في إثر محاولات بعض الصُّحُف الغربية الإساءة إلى جَنابه الشريف، فكانت خيرَ حافز ومشجِّع على الذبِّ عن مقام النبوَّة السامي، بمنهج علميٍّ مقنع، وأسلوب أدبيٍّ ممتع.

وتألفت المسابقة من أربعة فروع، هي: البحث العلمي، والقصة القصيرة، والمقالة الصحفية، ومقالات الناشئة.

وبلغت جوائزها: تسعين ألف ريال.